

/ قال شيخ الإسلام - قدس الله روحه - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله رب السموات والأرضين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد كتبت ما حضرني ذكره في المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان بحضرة الخلق من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء العامة وغيرهم في أمر «البطائحية» يوم السبت تاسع جمادي الأولى سنة خمس^(١) ، لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه ، فإن من كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعة ، / ومن شهدا فقد رأى وسمع ما رأى وسمع ، ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويره لانتشار هذه الواقعة العظيمة ، ولما حصل بها من عز الدين ، وظهور كلمته العليا ، وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة ، وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة ، والأحوال الفاسدة والتليس على المسلمين .

وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء «البطائحية» ، وطريقهم وطريق (الشيخ أحمد بن الرفاعي) وحاله ، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم ، ليتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام ، فإن ذلك يطول وصفه في هذا الموضع ، وإنما كتبت هنا ما حضرني ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة في مناظرتهم ومقابلتهم .

وذلك أنني كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته في غير هذا الموضع - وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد في بعضهم التبع والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد - فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر ، ومن الغلو والبدع في الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول ، والاستخفاف بشريعة الإسلام ، والكذب والتليس ، / وإظهار المخارق الباطلة وأكل أموال

(١) هكذا بالأصل .

الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ما يوجد .

وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل ، وأحوالهم التي يسمونها الإشارات ، وتاب منهم جماعة ، وأدب منهم جماعة من شيوخهم ، وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق : مثل ملابسة النار والحيات ، وإظهار الدم ، واللاذن^(١) والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك ، وإن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة ، وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضتي لهم ، رجعوا ودخلوا على أن أسترهم فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة ، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام فيه جماعة كثيرة يبيع البساتين لما عارضتهم بأنني أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يذهب الحيلة ، ومن احترق كان مغلوباً ، فلما رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك .

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق ، وكان له صنم يعبد ، قال : فقال لي : هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ويبقى أثر الأكل في الطعام بينا يرى فيه !! فأنكرت ذلك ، فقال لي : إن كان يأكل أنت تموت ؟ فقلت : نعم ، قال : فأقامت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر في الطعام أثر ! فاستعظم ذلك / التري وأقسم بأيمان مغلظة أنه كل يوم يرى فيه أثر الأكل ، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك ، فقلت لهذا الشيخ : أنا أبين لك سبب ذلك . ذلك التري كافر مشرك ، ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك ، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتري بالنسبة إلى أمثالك ، فالتري وأمثاله سود ، وأهل الإسلام المحض بيض ، وأنتم بلق فيكم سواد وبياض ، فأعجب هذا المثل من كان حاضراً!

وقلت لهم في مجلس آخر ، لما قالوا : تريد أن تظهر هذه الإشارات ؟ قلت : إن عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن - من الأعراب والفلاحين ، أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفكرة والمتصوفة - لم يحسب لكم ذلك . فمن معه ذهب فليأت به إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر ، لا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك . فقالوا لي : لا نعمل هذا إلا أن تكون همتك معنا ، فقلت : همتي ليست معكم ، بل أنا معارض لكم مانع لكم ، لأنكم تقصدون بذلك أبطال شريعة رسول الله ﷺ ، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا . فانقلبوا صاغرين .

(١) اللاذن واللاذنة من العلوك ، وقيل : هو دواء بالفارسية ، وقيل : هو ندى يسقط على الغنم في بعض جزائر البحر . انظر : اللسان ، مادة «لذن» .

/ فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر، مطوقين بأغلال الحديد في أعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمر، وكان يحضر عندي مرات فأخاطبه بالتي هي أحسن، فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين، ويتخذونه عبادة وديناً يوهمون به الناس أن هذا لله سر من أسرارهم، وإنه سيماء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبته في ذلك بالمسجد الجامع، وقلت: هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم، ولا يجوز التعبد بذلك، ولا التقرب به إلى الله ؛ لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي في ذلك وهو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى على رجل خاتماً من حديد فقال: «مالي أرى عليك حلية أهل النار»^(١). وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن في أعناقهم الأغلال، فالتشبه بأهل النار من المنكرات، وقال بعض الناس: قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا، قال في آخره: «أحب القيد وأكره الغل. القيد ثبات في الدين»^(٢) فإذا كان مكروهاً في المنام فكيف في اليقظة؟!

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع /زيادة ، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة ، وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله ، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به، وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبابه، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه ، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم.

فهذا أصل عظيم تحجب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر

(١) أبو داود في الخاتم (٤٢٢٣)، والترمذي في اللباس (١٧٨٥)، وقال: «حديث غريب»، والنسائي في الزينة (٥١٩٥)، كلهم عن بريدة، وأحمد ١٦٣/٢، ١٧٩، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) البخاري في التعبير (٧٠١٧)، ومسلم في الرؤيا (٦/٢٦٣).

الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله، كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه، بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه، فلا / يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة (طاعة وعبادة).

١١/٤٥١

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس للالتزام بطريقة شيخ معين كعهود أهل «الفتوة» و«رمة البندق» ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في شرع الله، لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك، ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالالتزام بطريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله ﷺ واتباع الكتاب والسنة، إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قرينة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ، وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك. وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قرينة لم يجز أن يعتقد أو يقال: إنه قرينة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل.

١١/٤٥٢

ويأهمل هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد، يرون الشيء / إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه، بل يقال: إنه جائز، ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضّة، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي وسيئات.

فصل

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة، ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة، وأنتظر الرجوع والفتية، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع. وكان قد كتب إلى كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار، وكتب وأثار، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة، بل إما أحاديث موضوعة، أو إسرائيليات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب . فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه ، وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» [القصص: ٥٠] ، ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون ، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» [المائدة: ٧٧] ، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع : أهل الأهواء .

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التي يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتفق على اتباع سبيله . فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة ، وكانهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو - على ما ذكر لي - وهم من الصياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العجائب ، فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعدرة ، وطلباً للبيان والتبصرة ، ورجاء المنفعة والتذكرة ، فعمدوا إلى القصر مرة ثانية ، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد ، واضطراب الرؤوس والأعضاء ، والتقلب في نهر بردي ، وإظهار التوله / الذي يخيّلوا به على الردى ، وإبراز ما يدعونه من الحال والمحال ، الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال .

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر ، وسأل عنهم فقبل له : هم مشتكون ، فقال : ليدخل بعضهم ، فدخل شيخهم ، وأظهر من الشكوى عليّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه ، لكن حدثني من كان حاضراً أن الأمير قال لهم : فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ ؟ فقالوا : بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ ، قال : فأى شيء يقال له ؟ قالوا : نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا ، قال : فنسمع كلامه ، فمن كان الحق معه نصرناه ، قالوا : نريد أن تشد منا ، قال : لا ، ولكن أشد من الحق سواء كان معكم أو معه ، قالوا : ولا بد من حضوره ؟ قال : نعم ، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم ، فأرسل إلى بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

فلما علمت ذلك ألقى في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين ، وكشف

١١/٤٥٥ حال أهل النفاق المتبدعين، لا تتشارهم في أفطار الأرضين، وما أحبيت البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبليغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة /الحال، وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثر فيكم القيل والقال، وإن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان، فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار الذين يعرفون حقيقة الأسرار، وأشاروا عليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة، والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة. وقال شيخهم الذي يسبح بأفطار الأرض؛ كبلاد الترك ومصر وغيرها: أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله. وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

ثم ذكر لي أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع، فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته، واستنصرته واستهديته، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك، حتى ألقى في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون بردًا وسلامًا على من اتبع ملة الخليل، وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل، وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الخنفاء بنواحي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء.

١١/٤٥٦ وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين، نسب يعرفه من عرف الحق المبين، فالغالية من القرامطة والباطنية /كالنصيرية والإسماعيلية، يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة، ثم إلى الإشراك، ثم إلى جحود الحق تعالى. ومن شركهم الغلو في البشر، والابتداع في العبادات، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق، كالملاحدين من أهل الاتحاد، والغالية من أصناف العباد.

فلما أصبحنا ذهبنا للميعاد، وما أحبيت أن أستصحب أحدًا للإسعاد، لكن ذهب أيضًا بعض من كان حاضرًا من الأصحاب، والله هو المسبب لجميع الأسباب. وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعًا مما جرت به عادتهم من التلبس والافتراء، الذي استحذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء، مثل زعمهم أن لهم أحوالًا لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، وإن لهم طريقًا لا يعرفها أحد من العلماء، وإن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وإنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة، وأن المنكر عليهم هو أخذ بالشرع الظاهر، غير واصل إلى الحقائق والسرائر، وأن لهم طريقًا وله طريق، وهم الواصلون إلى كنه التحقيق، وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزيين.

وكانوا لفرط انتشارهم في البلاد ، واستحوادهم على الملوك والأمراء والأجناد ، لحفاء نور الإسلام ، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام ، / وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التار ، لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لايزول بقول قائل .

قال المخبر : فغدا أولئك الأمراء الأكابر، وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر، وذكر لي أنواعاً من الخطاب، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب، والأمير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق، فأعاد الرسول إلى مرة ثانية، فبلغه أني في الطريق، وكان كثير من أهل البدع الأضداد، كطوائف من المتفقهة والمتفكرة وأتباع أهل الاتحاد، مجدين في نصرهم بحسب مقدورهم ، مجهزين لمن يعينهم في حضورهم. فلما حضرت وجدت النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون طالين للاطلاع، فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض مذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء. وقال: إنهم قالوا: إنك طلبت منهم الامتحان، وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسوها ، فقلت :هذا من البهتان.

وها أنا ذا أصف ما كان ، قلت للأمير: نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً، ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النار. وفي ذلك الحديث الصحيح^(١)، وهؤلاء يكذبون في ذلك ، وهم كذابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين وديانهم ما الله به عليم. وذكرت / تلييسهم على طوائف من الأمراء، وأنهم لبسوا على الأمير المعروف بالأيديري^(٢)، وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرهما، وقد لبسوا أيضاً على الملك العادل كتبغا في ملكه، وفي حالة ولاية حماة، وعلى أمير السلاح أجل أمير بديار مصر، وضاق المجلس عن حكاية جميع تلييسهم. فذكرت تلييسهم على الأيديري، وأنهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة، ووعدوه بالملك، وأنهم وعدوه أن يروه رجال الغيب، فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يشي كهية الذي يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة وذاك يرى من بعيد قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالا كثيراً ثم انكشف له أمرهم.

قلت للأمير: وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك، وهو ممن حدثني بهذه القصة، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموه أن الموتى تتكلم، وأتوا به

(١) مسلم في الإمارة (٣٩/١٨٤٠ ، ٤٠) ، والنسائي في البيعة (٤٢٠٥)، كلاهما عن علي .

(٢) هو أيديمر بن عبد الله التركي، المكنى بعلم الدين المحيوي، شاعر، له قصائد وموشحات جيدة السبك ، تركي الأصل ، له اشتغال بالحديث ، توفي سنة ٦٧٤هـ. [الاعلام للزركلي ٣٤/٢] .

في مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته، وقالوا: إنه طلب منه جملة من المال، فقال قفجق: الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزانتي ليس فيها هذا كله، وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز، / فذكرت للأمير هذا، ولهذا قيل لي: إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتابا وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرى.

١١/٤٥٩

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال ونحوها، وإنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة، فذكر الأمير حديث البدعة وسألني عنه، فذكرت حديث العرباض بن سارية، وحديث جابر بن عبد الله، وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره.

قلت للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرّون على ذلك، ويقولون لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضوا علينا، بل يسلم إلينا ما نحن عليه - سواء وافق الشرع أو خالفه - وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله، وكان مغلوباً، وذلك بعد أن غسل جُسُومنا بالخل والماء الحار.

١١/٤٦٠

فقال الأمير: ولم ذاك؟ قلت: لأنهم يطلون جُسُومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشر النارج، وحجر الطلق وغير ذلك / من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء، فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق، فاستعظم الأمير هجومي على النار، وقال: أتفعل ذلك؟ فقلت له: نعم! قد استخرت الله في ذلك وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطنًا وظاهرًا لحجة أو حاجة، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن نصر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجُسُومنا وأموالنا، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات.

وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة؛ لما أظهروا سحرهم أيد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم. فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط

بذلك، وفرح بذلك، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده، وسمعتة يخاطب الأمير الكبير، الذي قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السباط، بالتركي ما فهمته منه إلا أنه قال: اليوم ترى حرباً عظيماً، ولعل ذلك كان / جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل.

١١/٤٦١

وحضر شيوخهم الأكابر، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون، فقال الأمير: إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق، وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبهادر فسمعتة يذكر له أيوب الحمال بمصر والمولهيّن ونحو ذلك، فذل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وإن لهم فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال، فإنه ذكر لي ذلك.

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وأكرمه، فأمر ببساط يبسط في الميدان، وقد قدم البطائية وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء، الطفر والجبو والتقلب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات، والحركات الخارجة عن العادات، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْصِ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامّة وغيرهم، وحضر شيخهم الأول المشتكى، وشيخ آخر / يسمى نفسه خليفة سيده أحمد، ويركب بعلمين، وهم يسمونه: عبد الله الكذاب، ولم أكن أعرف ذلك. وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته طلبته ولم أتفطن لكذبه حتى فارقتي، فبقى في نفسي أن هذا خفي على تلييسه إلى أن غاب، وما يكاد يخفي على تلييس أحد، بل أدركه في أول الأمر فبقى ذلك في نفسي ولم أره قط إلى حين ناظرته، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديماً فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون حيث كتم تلييسه بيني وبينه.

١١/٤٦٢

فلما حضروا، تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة، وأنا مجيبون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلal وغيرها من البدع، ومتبعون للشريعة. فقلت: أما التوبة فمقبولة. قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٣]، هذه إلى جنب هذه. وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فأخذ شيخهم المشتكى يتصرللبسهم الأطواق وذكر أن وهب بن منبه روى أنه كان في

بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقاً، في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت.

١١/٤٦٣ / فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا، قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال: «أمتهوكون يا بن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم»^(١)، وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال: «كفى ب قوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل إلى نبي غير نبيهم»، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]^(٢).

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا ونتبع الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل؟! ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، هات ما في القرآن وما في الأحاديث الصحاح؛ كالبخاري ومسلم، وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية.

١١/٤٦٤ / فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية.

فقلت له: هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين، بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعدّه بدعة، وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملاكني^(٣) مفتى الشافعية ودعوته وقلت: ياكمال الدين ما تقول في هذا؟ فقال: هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة، أو كما قال. وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك.

(١)، (٢) سبق تخريجهما ص ٢٣٢.

(٣) هو محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري، كمال الدين، المعروف بابن الزملاكني فقيه، انتهت إليه رئاسة الشافعية في عصره، ولد وتعلم بدمشق وتوفي في بليس ودفن بالقاهرة، له رسالة في الرد على ابن تيمية في مسألتها «الطلاق والزبارة» وله كتاب في التاريخ، وكتب أخرى، وكان شكله حسناً ومنظره رائعاً، وعقيدته صحيحة متمكنة أشعرية. [فوات الوفيات ٧/٤-١١ (٤٨٨)].

وقلت: ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأشك هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر، فإني تكلمت بكلام بعد عهدي به.

فانتدب ذلك الشيخ « عبد الله » ورفع صوته. وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه: مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر، ومضمونه أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر، وإن لنا أمراً لا يقف عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا.

/فقلت له - ورفعت صوتي وغضبت - : الباطن والظاهر والجالس والمدارس، والشريعة والحقائق، كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم، بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ. وذكرت هذا ونحوه.

١١/٤٦٥

فقال - ورفع صوته - : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا، وادعى الأحوال الخارقة؛ كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها.

فقلت - ورفعت صوتي وغضبت -: أنا أحاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب، وربما قلت: فعليه لعنة الله، ولكن بعد أن نغسل جُسُومنا بالخل والماء الحار، فسألني الأمراء والناس عن ذلك؟ فقلت: لأن لهم حيلة في الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء: من دهن الضفادع، وقشر النارج، وحجر الطلق. فضج الناس بذلك، فأخذ يظهر القدرة على ذلك فقال: أنا وأنت نلف في بارية بعد أن تطلي جُسُومنا بالكبريت. فقلت: فقم، /وأخذت أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمد يده يظهر خلع القميص فقلت: لا! حتى تغتسل في الماء الحار والخل، فأظهر الوهم على عادتهم، فقال: من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال: حزمة حطب. فقلت: هذا تطويل وتفريق للجمع، ولا يحصل به مقصود بل قنديل يوقد وأدخل أصبعي وأصبعك فيه بعد الغسل، ومن احترقت أصبعه فعليه لعنة الله، أو قلت: فهو مغلوب. فلما قلت ذلك تغير ذل. وذكر لي أن وجهه اصفر.

١١/٤٦٦

ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طرتم في الهواء، ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما

تدعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع، فإن الدجال الأكبر يقول للسماء: أمطري فمطر، وللأرض: أنبتى فنتبت، وللخربة: أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه، ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه، ثم يقول له: قم فيقوم، ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون، لعنه الله، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب.

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي: أندري / ما قال صاحبنا، يعني الليث بن سعد؟ قال: لو رأيته صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به. فقال الشافعي: لقد قصر الليث لو رأيته صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به، وتكلمت في هذا ونحوه بكلام بعد عهدي به. ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح وجعلت ألح عليه في إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة وهم لا يجيبون، وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولاهون منهم، وهم عدد كثير، والناس يضجون في الميدان، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا مامضونه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩]، وذكروا أيضاً أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب، وأنه الذي قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهماً، فقلت: ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبس، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنه أدخل النار في لحيته قدام صاحب حماة، ولما فارقتني وقع في قلبي أن لحيته مدهونة. وأنه دخل إلى الروم واستحوذ عليهم.

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلييهم، وتبين للأمرء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا، وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال، وعرفوا حقيقة الحال، وقمنا إلى / داخل ودخلنا، وقد طلبوا التوبة عما مضى، وسألني الأمير عما تطلب منهم فقلت: متابعة الكتاب والسنة مثل ألا يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر، وقد توجب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه.

فقالوا: نحن ملتزمون الكتاب والسنة أتنكر علينا غير الأطواق؟ نحن نخلعها. فقلت: الأطواق وغير الأطواق، ليس المقصود شيئاً معيناً، وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين

تحت طاعة الله ورسوله ﷺ . فقال الأمير: فأى شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة؟ فقلت: حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً، ومن خرج عنه ضربت عنقه - وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان - وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس، فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه، فيتقرر عند المقاتلة، وأهل الديوان، والعلماء والعباد، وهؤلاء وولاة الأمور - أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

/قلت: ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله، فإن من هؤلاء من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته، حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا على في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة: يا سيدي أحمد، شيء لله. وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم في صغير الذنوب، ولم يأمره بإعادة الصلاة. وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة.

فقال: هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس.

فقلت: العطاس من الله، والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان، وهو باختيارهم وتكلفهم، ويقدرّون على دفعه، ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى: مثل قول أحدهم: أنا على بطن امرأة الإمام، وقول الآخر كذا وكذا من الإمام، ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالنوبة، وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا / مغلوبين على ذلك، كما يغلب الرجل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها.

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم قلت له: أهذا موافق للكتاب والسنة؟ فقال: هذا من الله حال يرد عليهم، فقلت: هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا أحبه الله ولا رسوله، فقال: مافي السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته، فقلت له: هذا من باب القضاء والقدر، وهكذا كل مافي العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته، وليس ذلك بحجة لأحد في فعله، بل ذلك مما زين الشيطان وسخطه الرحمن.

فقال: فبأي شيء تبطل هذه الأحوال. فقلت: بهذه السياط الشرعية. فأعجب الأمير

وضحك ، وقال : أي والله ، بالسياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية ، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية ، وأمسكت سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله ﷺ وعلامة وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ ، فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله ، وأعاد الأمير / هذا الكلام ، وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يقرون ولا نقر نحن؟ فقلت : اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم ، والمبتدع لا يقر على بدعته . فأفحموا لذلك .

١١/٤٧١

و« حقيقة الأمر » أن من أظهر منكراً في دار الإسلام لم يقر على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر ، ولا يقر من أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم ، ومن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته ، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

وذكرت ذم «المبتدعة» فقلت : روى مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته : «إن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة» (١) . وفي السنن عن العرباض بن سارية ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون ، ووجلّت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال : «أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين / من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» وفي رواية : «وكل ضلالة في النار» (٢) .

١١/٤٧٢

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثاً في ذم الزنا ، فقلت : هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والزنا معصية ، والبدعة شر من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها ، وكان قد قال بعضهم : نحن نتوب الناس ، فقلت : لماذا تتوبونهم؟ قال : من قطع الطريق ، والسرقة ، ونحو ذلك . فقلت : حالهم قبل تتوبيكم خير من حالهم بعد تتوبيكم ، فإنهم كانوا فاسقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه ، ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينوون التوبة ، فجعلتموهم بتوبيكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله ، وبينت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من

(١) سبق تخريجه ص ٢٢ .

(٢) أبو داود في السنة (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال : « حسن صحيح » .

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين : أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً، وكان يشرب الخمر، وكان يضحك النبي ﷺ ، وكان كلما أتى به النبي ﷺ جلده الحد فلعنه رجل مرة . وقال : / لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ !؟ فقال النبي ﷺ : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » (١) . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي ﷺ بذلك ونهى عن لعنه .

١١/٤٧٣

وأما المتبدع فمثل ما أخرجنا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أن النبي ﷺ كان يقسم ، فجاءه رجل نأتى الجبين كثر اللحية، مخلوق الرأس ، بين عينيه أثر السجود، وقال ما قال . فقال النبي ﷺ : « يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » (٢) وفي رواية : « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » (٣) وفي رواية : « شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه » (٤) .

قلت : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي ﷺ بقتلهم، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي ﷺ ، وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته، وأظن أني ذكرت قول الشافعي : لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قبح البدع في الإسلام، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنهم مبتدعون بدعاً منكراً فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والشارق وشارب الخمر . أخذ شيخهم عبد الله يقول : يا مولانا لا تتعرض لهذا الجنب العزيز - يعني أتباع أحمد بن الرفاعي - فقلت منكراً بكلام غليظ : ويحك ، أي شيء هو الجنب العزيز، وجناب من خالفه أولى بالعرز ياذو الزرجنة (٥) ، تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله، فقال : يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم، فقلت : مثل ما أحرقتني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم، ويقول أصحابهم : إن لهم سراً مع الله، فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمر غزو الرافضة بالجليل .

١١/٤٧٤

(١) البخاري في الحدود (٦٧٨٠) .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٣ .

(٣) أبو داود في السنة (٤٧٦٨) بنحوه .

(٤) أحمد ٢٥٦/٥ .

(٥) كذا بالأصل . والزرجون : الخمر . انظر : اللسان، مادة «زرجن» .

دلت لهم : يا شبه الرافضة يا بيت الكذب - فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن
النريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم ، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به
الرافضة في ذلك، أو يساوونهم، / أو يزيدون عليهم، فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل
فيهم: لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا: أكذب من الأحمدية على
شيخهم، وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون.

١١/٤٧٥

ولما رددت عليهم الأحاديث المكدوبة أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهتدوا بها
فبذلت لهم ذلك، وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وأعاد
الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك، والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده
وهزم الأحزاب وحده .

/ سئل شيخ الإسلام ، وناصر السنة، فريد الوقت ، وبحر العلوم، بقية المجتهدين ، وحجة المتأخرين ، تاج العارفين ، وقدوة المحققين، رحلة الطالبين ، ونخبة الراسخين ، إمام الزاهدين ومنال المجتهدين، الإمام الحجة النوراني ، والعالم المجتهد الرباني ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني - أدام الله علو قدره في الدارين ، وجعله يتسنم ذروة الكمال مسرور القلب قرير العين - عن «المرشدة» كيف كان أصلها وتأليفها ؟ وهل تجوز قراءتها أم لا؟

فأجاب - رحمه الله تعالى - قائلا :

الحمد لله رب العالمين، أصل هذه: أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن التومرت، الذي تلقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرقاً من العلم، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب، إلى قوم من البربر / وغيرهم جهال لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء الله، فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام، واستجاز أن يظهر لهم أنواعاً من المخاريق، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ، الذي يواطئ اسمه اسمه، واسم أبيه اسم أبيه. وأنه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، ونحو ذلك من الكلام. فإذا اعتقد أولئك البربر إن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره.

ثم إن أولئك المقبورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهر أمره، واعتقد أن دماء أولئك سباحة بدون هذا، وأنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه، وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعاً. وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه.

ومن الحكايات التي يأترونها عنه أنه واطأ رجلاً على إظهار الجنون وكان ذلك علاناً يحفظ القرآن والحديث والفقه، فظهر بصورة الجنون والناس لا يعرفونه إلا مجنوناً. ثم

أصبح ذات يوم وهو عاقل يقرأ القرآن والحديث والفقه ، وزعم أنه علم ذلك في المنام ، وعوفي مما كان / به ، وربما قيل : إنه ذكر لهم أن النبي ﷺ علمه ذلك فصاروا يحسنون الظن بذلك الشخص ، وأنه كان لهم يوم يسمونه يوم الفرقان ، فرق فيه بين أهل الجنة وأهل النار بزعمه ، فصار كل من علموا أنه من أوليائهم جعلوه من أهل الجنة ، وعصموا دمه ، ومن علموا أنه من أعدائهم جعلوه من أهل النار ، فاستحلوا دمه ، واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية ، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة ، يقرؤون القرآن والحديث : كالصحيحين ، والموطأ وغير ذلك ، والفقه على مذهب أهل المدينة ، فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة ، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم .

واستحل أيضاً أموالهم ، وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه ، من جنس ما كانت تستحلها الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة ، وسائر نفاة الصفات من أهل السنة والجماعة - لما امتحنوا الناس في «خلافة المأمون» وأظهروا القول بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يرى في الآخرة ، ونفوا أن يكون لله علم ، أو قدرة أو كلام أو مشيئة ، أو شيء من الصفات القائمة بذاته .

وصار كل من وافقهم على هذا التعطيل عصموا دمه وماله ، ولوه الولايات وأعطوه الرزق من بيت المال ، وقبلوا شهادته وافتدوه من / الأسر ، ومن لم يوافقهم على أن القرآن مخلوق وما يتبع ذلك من بدعهم قتلوه ، أو حبسوه أو ضربوه أو منعهوا العطاء من بيت المال ، ولم يولوه ولاية ، ولم يقبلوا له شهادة ، ولم يقدوه من الكفار . يقولون : هذا مشبه ، هذا مجسم ، لقوله : إن الله يرى في الآخرة ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله استوى على العرش ، ونحو ذلك . فدامت هذه المحنة على المسلمين بضع عشرة سنة ، في أواخر خلافة المأمون ، وخلافة أخيه المعتصم ، والواثق بن المعتصم ، ثم إن الله تعالى كشف الغمة عن الأمة ، في ولاية المتوكل على الله ، الذي جعل الله عامة خلفاء بني العباس من ذريته دون ذرية الذين أقاموا المحنة لأهل السنة .

فأمر المتوكل برفع المحنة وإظهار الكتاب والسنة ، وأن يروى ما ثبت عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ، من الإثبات النافي للتعطيل . وكان أولئك الجهمية المعطلة قد بلغ من تبديلهم للدين كانوا يكتبون على ستور الكعبة : «ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم» ولا يقولون : «وهو السميع البصير» ، وأنهم كانوا يمتحنون الناس بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، فإذا قالوا : وهو السميع البصير أنكروا عليهم ، ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن

غير / تكييف ولا تمثيل ، فلا ينفون عن الله ما أثبتته لنفسه، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء. لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل ، ونفي مجمل. وأعداء الرسل - الجهمية الفلاسفة ونحوهم - وصفوه بنفي مفصل، وإثبات مجمل. فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه : بكل شيء عليم، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه حي قيوم، وأنه عزيز حكيم، وأنه غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنه رضى عن المؤمنين ورضوا عنه، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم، وإنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، وأنه كلم موسى تكليماً، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد ﷺ . كما قال : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

/ وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجزنا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»^(١) وقد استفاض عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته»^(٢)، وإن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال: «هل تضامون في رؤية الشمس صحوا ليس دونها سحاب؟» قالوا : لا . قال: «فهل تضارون في رؤية القمر صحوا ليس دونه سحاب؟» قالوا : لا . قال: «فإنكم سترون ربكم، كما ترون الشمس والقمر»^(٣) فشبّه ﷺ الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي، فإن العباد لا يحيطون بالله علماً، ولا تدركه أبصارهم. كما قال تعالى : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقد قال غير واحد من السلف والعلماء : إن «الإدراك» هو الإحاطة ؛ فالعباد يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به، فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله .

(١) مسلم فى الإيمان (١٨١ / ٢٩٧) .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦ ، ٧٤٣٧ ، ٧٤٣٩) ومسلم فى المساجد (٦٣٣ / ٢١١) .

(٣) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٨٣ / ٣٠٢) .

وقال تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] ، / ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] ، فيين في هذه الآيات أن الله لا كفو له ، ولا ند له ، ولا مثل له ولا سَمِيَّ له ، فمن قال: إن علم الله كعلمي ، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي، أو استواءه على العرش كاستوائي ، أو نزوله كنزولي ، أو إتيانه كإتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه، تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل ، بل كافر.

ومن قال : إن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام ، ولا مشيئة ، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضى ، ولا غضب ، ولا استواء، ولا إتيان ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، و ألحد في أسماء الله وآياته، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل ، كما قال نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخارى: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماء ولبناً وخمراً وعسلاً ولحماً وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة، وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. فإذا / كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق ، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم ؟!

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير، وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه حي، وعن بعض عباده أنه حي، وليس هذا مثل هذا. وأخبر أنه رؤوف رحيم، وأخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم، وليس هذا مثل هذا. وأخبر أنه عليم حلیم وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حلیم، وليس هذا مثل هذا، وسمى نفسه الملك، وسمى بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا. وهذا كثير في الكتاب والسنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كائمه المذاهب؛ مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم، على هذا، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، لا يقولون بقول أهل التعطيل، نفاة الصفات، ولا يقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوقات، فهذه طريقة الرمل، ومن آمن بهم.

وأما المخالفون للرمل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم،

فيصفون الرب تعالى «بالصفات السلبية» ليس كذا، ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدم فيبقى ما ذكره مطابقتاً للمعدم، فلا يبقى / فرق بين ما يثبتونه وبين المعدم، وهم يقولون : إنه موجود ليس بمعدم، فيتناقضون ، يثبتونه من وجه، ويجحدونه من وجه آخر. ويقولون: إنه وجود مطلق ، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجوداً، فإنه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين، ولا يتميز عن غيره، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر - أمراً مطلقاً، وإن كان لا حقيقة له في الخارج ، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق - سبحانه وتعالى - موجوداً مباحثاً لخلقه، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون: هو وجود المخلوقات.

ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، ولم يدخلها فيه، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم - الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم - كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة، ونصرهم، بقى هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم ، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم / على أنه وجود مطلق ، ولايزيدون على ذلك.

وصاحب «المرشدة» كانت هذه عقيدته كما قد صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك، ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق ، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.

ولهذا لم يذكر في «مرشدته» الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة؛ أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام: من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشايع التصوف والزهد، وعلماء أهل الحديث، فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي : بقوة .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن . يقول : / « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة . ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان . ثم رضني به»^(١) .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله .

فصاحب «المرشدة» لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة ، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر . فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة . ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة، بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية ، / والشيعية، ونحوهم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة، أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطال قوله، وتضليله .

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله ورسوله، وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله، فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة، فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم . وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقاً، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها، فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وبطلاً ، فالحق يجب اتباعه، والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب كبير . وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون؛ إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون، ولا يخلد في النار من

(١) البخاري في التهجد (١١٦٢) وأبو داود في الاستخارة (١٥٣٨) .

/ و «التوحيد» هو ما بينه الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص] ، وهذه السورة تعدل ثلث القرآن . وقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] ، وقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

نفثة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً . فمن قال : إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق . أو قال : إن الله يرى في الآخرة أو قال : «استخريك بعلمك . وأستقدرك بقدرتك» لم يكن موحداً عندهم ، بل يسمونه مشبهاً مجسماً ، وصاحب «المرشدة» لقب أصحابه موحدين ، اتباعاً لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان ، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن .

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى : إنه قادر على ما يشاء ، وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلى الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون : إنه لا يقدر على غير ما فعل ، ومذهب المسلمين أن الله على / كل شيء قدير ، سواء شاء أو لم يشأه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾ [الأنعام : ٦٥] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال : «أعوذ بوجهك» ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ ، قال : «أعوذ بوجهك» ، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ، قال : «هاتان أهون» (١) قالوا : فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما ، بل قد أجاز الله هذه الأمة على لسان نبيها ألا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم ، أو يهلكهم بسنة عامة . وقد قال تعالى : ﴿ أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٣] ، [٤] فالله قادر على ذلك ، وهو لا يشاؤه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : ١٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود : ١١٨] قاله تعالى قادر على ذلك . فلو شاء لفعله بقدرته ، وهو لا يشاؤه .

(١) البخاري في التفسير (٤٦٢٨) ، عن جابر .

وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة وبيننا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر .

١١/٤٩٠ / فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها، ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك، فإنه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد من المسلمين إلى تعلمها وقراءتها، ولا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في خلاف ذلك، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدي ولا يبتدي، فإن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، وقال له: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ [يوسف: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] والنبي ﷺ علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات، وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة، فإن / الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا (١) عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

والله أعلم، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وما توفيقي إلا بالله. عليه توكلت وإليه أنيب.

(١) في المطبوعة: « وَاَنْزَلْنَا » والصواب ما أثبتناه.

/ سئل عن رجل تخاطب هو وإنسان على من قرأ «المرشدة» .

قال الأول :قال بعض العلماء: المرشدة لا يجوز أن نقرأها، قال الآخر : من لا يقرأها فهو كافر؟

الجواب :

الحمد لله ، أما هذا القائل الثاني الذي قال :من لا يقرأها فهو كافر ، فإنه كاذب ضال مخطئ جاهل يجب أن يستتاب عن مثل هذا القول ، فإن تاب وإلا عوقب عقوبة بليغة تردعه وأمثاله عن مثل هذا .

بل إذا فهم مضمون قوله : من لم يقرأها فهو كافر ، وأصر عليه بعد العلم ، كان هو الكافر المستحق لأن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . والله أعلم .

١١/٤٩٣ / سئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن قوم منتسبين إلى المشائخ: يتوبونهم عن قطع الطريق، وقتل النفس والسرقة، وألزمهم بالصلاة؛ لكنهم يصلون صلاة عادة البادية، فهل يجب إقامة حدود الصلاة أم لا؟ ومع هذا شعارهم الرفض، وكشف الرؤوس، وتفتيل الشعر، وحمل الحيات. ثم غلب على قلوبهم حب الشيوخ. حتى كلما عثر أحدهم أو هممه أمر استغاث بشيخه، ويسجدون لهم مرة في غيبتهم، ومرة في حضورهم. فتارة يصادف السجود إلى القبلة، وتارة إلى غيرها - حيث كان شيخه - ويزعمون هذا لله. ومنهم من يأخذ أولاد الناس حوارات برضى الوالدين، وبغير رضاهم، وربما كان ولد الرجل معيناً لوالديه على السعي في الحلال فيأخذه ويعلمه الدرورة. وينذر للموتى، ومنهم من يواخي النسوان فإذا نهوا عن ذلك قال: لو حصل لي أملك وأختك، وأختيهما فإذا قيل: لا تنظر أجنبية. قال: أنظر عشرين نظرة، ويحلفون / بالمشائخ. وإذا نهوا عن شيء من ذلك. قال: أنت شرعي. فهل المنكر عليهم مأجور أم لا؟

وهل اتخاذ الخرقه على المشائخ له أصل في الشرع أم لا؟ وهل انتساب كل طائفة إلى شيخ معين يثاب عليه أم لا؟ وهل التارك لها آثم أم لا؟ ويقولون: إن الله يرضى لرضا المشائخ، ويغضب بغضبهم ويستندون إلى قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(١) و«أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله»^(٢) فهل ذلك دليل لهم، أم هو شيء آخر؟ ومن هذه حاله هل يجوز دفع الزكاة إليه؟

فأجاب - قدس الله روحه :

وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات، فليس هذا من شعار أحد من الصالحين لا من الصحابة ولا التابعين ولا شيوخ المسلمين لا المتقدمين ولا المتأخرين ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي ولا غيره، وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة، ابتدعه طائفة انتسبت إليه فخالفوا طريق المسلمين وخرجوا عن حقائق الدين، وفارقوا طريق عباد الله الصالحين وهم نوعان:

١١/٤٩٥ أهل حال إبليسي، وأهل محال تليسي، فأما أهل «الأحوال» / منهم: فهم قوم اقترنت

(١) سبق تخريجه ص ٣٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ٩٢ .

بهم الشياطين، كما يقترون بإخوانهم. فإذا حضروا سماع المكاء والتصدية أخذهم الحال ، فيزيدون ويرغون . كما يفعله المصروع، ويتكلمون بكلام لا يفهمونه هم ولا الحاضرون، وهي شياطينهم تتكلم على ألسنتهم عند غيبة عقولهم، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع، ولهم مشابهيون في الهند من عباد الأصنام. ومشابهيون بالمغرب يسمى أحدهم المصلي، وهؤلاء الذين في المغرب من جنس الزط الذين لا خلاق لهم، فإذا شرب بعض الناس مصروع أو نحوه أعطاهم شيئاً فيجئون ويضربون لهم بالدف والملاهي ويحرقون ويوقدون ناراً عظيمة مؤججة ويضعون فيها الحديد العظيم حتى يبقى أعظم من الجسر وينصبون رماحاً فيها أسنة، ثم يصعد أحدهم يقعد فوق أسنة الرماح قدام الناس. ويأخذ ذلك الحديد المحمي ويمره على يديه ، وأنواع ذلك .

ويرى الناس حجارة يرمى بها ولا يرون من رمى بها، وذلك من شياطينهم الذين يصعدون بهم فوق الرمح، وهم الذين يباشرون النار. وأولئك قد لا يشعرون بذلك، كالمصروع الذي يضرب ضرباً وجيعاً وهو لا يحس بذلك، لأن الضرب يقع على الجنى، فكذا حال أهل الأحوال الشيطانية، ولهذا كلما كان الرجل أشبه بالجن والشياطين كان حاله أقوى ، ولا يأتيهم الحال إلا عند مؤذن الشيطان وقرآته، فمؤذنه المزمار، وقرآته الغناء .

١١/٤٩٦

/ ولا يأتيهم الحال عند الصلاة والذكر والدعاء والقراءة ، فلا لهذه الأحوال فائدة في الدين، ولا في الدنيا، ولو كانت أحوالهم من جنس عباد الله الصالحين، وأولياء الله المتقين، لكانت تحصل عند ما أمر الله به من العبادات الدينية، ولكان فيها فائدة في الدين والدنيا لتكثير الطعام والشراب عند الفاقات، واستئزال المطر عند الحاجات، والنصر على الأعداء عند المخافات، وهؤلاء أهل الأحوال الشيطانية في التلبيس يحقون البركات، ويقوون المخافات، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، لا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يجاهدون في سبيل الله، بل هم مع من أعطاهم وأطعمهم وعظمهم، وإن كان تترى ، بل يرجحون التتر على المسلمين ، ويكونون من أعوانهم ونصرائهم الملاعين، وفيهم من يستعين على الحال بأنواع من السحر والشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله .

وأما أهل «المحال» منهم : فهم يصنعون أدوية كحجر الطلق، ودهن الضفادع، وقشور النارنج ونحو ذلك، يمشون بها على النار ويمسكون نوعاً من الحيات ويأخذونها بضعة ، ويقدمون على أكلها بفجور وما يصنعونه من السكر واللادن، وماء الورد، وماء الزعفران والدم، فكل ذلك حيل وشعوذة يعرفها الخبير بهذه الأمور .

ومنهم من تأتيه الشياطين، وذلك هم أهل المحال الشيطاني .

فصل /

وأما ما ذكروا من غلوهم في الشيوخ: فيجب أن يعلم أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم في الدين هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ومن له في الأمة لسان صدق - وطريقة هؤلاء دعوة الخلق إلى الله، وإلى طاعته وطاعة رسوله، واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ .

والمقصود أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا . فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] .

والرسل أمروا الخلق ألا يعبدوا إلا الله ، وأن يخلصوا له الدين ، فلا يخافون غيره ، ولا يرجون سواه، ولا يدعون إلا إياه . قال تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] ، / فجعل الطاعة لله والرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] ، فالإيتاء لله والرسول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ، والحلال ما حلله رسول الله والحرام ما حرمه . والدين ما شرعه، ليس لأحد من الأولين والآخرين خروج عن طاعته وشريعته، ومن لم يقر به باطنًا وظاهرًا فهو كافر مخلد في النار .

وخير الشيوخ الصالحين ، وأولياء الله المتقين : أتبعهم له وأقربهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر التابعين بإحسان، وأما الحسب فله وحده ولهذا قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ولم يقولوا: ورسوله . كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي : إن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . فهو وحده يكفيهم فإنه سبحانه له الملك وله الحمد وهو كاف عبده، كما قال تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] .

/ وروى أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله، هل ربنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١)، فهو سبحانه سميع قريب مجيب رحيم، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وهو يعلم من أحوال العباد ما لا يعلمه غيره، ويقدر على قضاء حوائجهم التي لا يقدر عليها غيره، ويرحمهم رحمة لا يرحمهم بها غيره.

والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه، ويرشدون إليه، بمنزلة الأئمة في الصلاة، يصلون ويصلي الناس خلفهم، وبمنزلة الدليل الذي للحاج هو يدلهم على البيت، وهو وهم جميعاً يحجون إليه، ليس لهم من الإلهية نصيب، بل من جعل لهم شيئاً من ذلك فهو من جنس النصارى المشركين، الذين قال الله في حقهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد قال نوح عليه السلام: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي اللَّهُ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] وهكذا أمر الله محمداً ﷺ أن يقول.

فليس لأحد أن يدعو شيخاً ميتاً أو غائباً، بل ولا يدعو ميتاً ولا غائباً: لا من الأنبياء ولا غيرهم، فلا يقول لأحدهم: يا سيدي فلان! أنا في حسبك أو في جوارك، ولا يقول: بك أستغيث، وبك أستجير، ولا يقول: إذا عثر: يا فلان! ولا يقول: محمد! وعلي! ولا الست نفيسة / ولا سيدي الشيخ أحمد، ولا الشيخ عدي، ولا الشيخ عبد القادر، ولا غير ذلك، ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب، ومسألته، والاستغاثة به، والاستنصار به، بل ذلك من أفعال المشركين، وعبادات الضالين.

ومن المعلوم أن سيد الخلق محمد ﷺ، قد ثبت في صحيح البخاري: أن الناس لما أجدبوا استسقى عمر بالعباس. وقال: اللهم إنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا، فتسقينا، وإنا نتوسل بعم نبينا فاسقنا فيسقون^(٢). فكانوا في حياة النبي ﷺ يتوسلون بدعائه، وشفاعته لهم، كما يتوسل به الناس يوم القيامة، ويستشفعون به إلى ربهم، فيأذن الله له في الشفاعة فيشفع لهم. ألا ترى الله يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، فبين - سبحانه - أن المخلوقات كلها ليس لأحد منها شيء في الملك، ولا له شريك فيه، ولا له ظهير، أي: معين لله تعالى كما تعاون الملوك، وبين أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا لمن أذن له.

(١) الطبري في التفسير ٢ / ٩٢.

(٢) البخاري في الاستسقاء (١٠١٠)، عن أنس.

وإذا كان يوم القيامة يجيء الناس إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيطلبون الشفاعة منهم، فلا يشفع لهم أحد من هؤلاء الذين هم سادة الخلق، حتى يأتوا محمداً ﷺ / فيأتي ربه فيحمده بمحامد ويسجد له، فإذا أذن له في الشفاعة شفع لهم. فهذه حال هؤلاء الذين هم أفضل الخلق، فكيف غيرهم؟

فلما مات النبي ﷺ لم يكونوا يدعونه، ولا يستغيثون به ولا يطلبون منه شيئاً لا عند قبره ولا بعيداً من قبره، بل ولا يصلون عند قبره ولا قبر غيره، لكن يصلون ويسلمون عليه ويطيعون أمره ويتبعون شريعته، ويقومون بما أحبه الله تعالى من حق نفسه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين، فإنه ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم. فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١)، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»^(٢)، وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني»^(٣). وقال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٤) يحذر ما فعلوا وقال له رجل: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده»^(٥)، وقال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»^(٦).

وفي المسند أن معاذ بن جبل سجد له. فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «يا رسول الله، رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم ويزكرون ذلك عن أنبيائهم فقال: «يا معاذ، لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»، وقال: «يا / معاذ، أرأيت لو مررت بقبري أكنت ساجداً لقبري» قال: لا. قال: «فإنه لا يصلح السجود إلا لله»^(٧) أو كما قال.

فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله ﷺ حياً ولا ميتاً، ولا لقبره، فكيف يجوز السجود لغيره؟ بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»^(٨) فقد نهى عن الصلاة إليها، كما نهى عن اتخاذها مساجد ولهذا لما أدخلوا حجرته في المسجد لما وسعوه جعلوا مؤخرها مسنماً منحرفاً عن سمت القبلة لئلا يصلي أحد إلى الحجرة النبوية، فما الظن بالسجود إلى جهة غيره. كائناً من كان؟!

وأما قول القائل: هذا السجود لله تعالى فإن كان كاذباً في ذلك فكفى بالكذب خزيًا، وإن كان صادقاً في ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، فإن السجود لا يكون إلا على الوجه المشروع وهو السجود في الصلاة، وسجود السهو وسجود التلاوة، وسجود الشكر

(١) سبق تخريجه ص ٤٠ . (٢، ٣) سبق تخريجهما ص ١٦١ . (٤) سبق تخريجه ص ١٦٠ .

(٥) أحمد ١ / ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣ وقال الشيخ شاکر (١٨٣٩) : «إسناده صحيح» .

(٦) أحمد ٥ / ٣٩٣ وابن ماجه في الكفارات (٢١١٨) والدارمی ٢ / ٢٩٥ .

(٧) أبو داود في النكاح (٢١٤٠) وابن ماجه في النكاح (١٨٥٣) .

(٨) مسلم في الجنائز (٩٧/٩٧٣، ٩٨) ، عن أبي مرثد الغنوي.

على أحد قولي العلماء . وأما السجود عقيب الصلاة بلا سبب فقد كرهه العلماء وكذلك ما يفعله بعض المشايخ من سجدتين بعد الوتر لم يفعله أحد من السلف ولا استحبه أحد من الأئمة، ولكن هؤلاء بلغهم حديث رواه أبو موسى الذي في (الوظائف) أن النبي ﷺ كان / يصلي سجدتين بعد الوتر ففعلوا (١) الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين وهو جالس ولم يداوم على ذلك» (٢) فسميت الركعتان سجدتين. كما في أحاديث أخر. فهذا هو أصل ذلك. والكلام في هاتين الركعتين المذكور في غير هذا الموضع.

١١/٥٠٣

وأما السجدتان فلا أصل لهما أولاً للسجود المجرد بلا سبب وقالوا: هو بدعة فكيف بالسجود إلى جهة مخلوق من غير مراعاة شروط الصلاة، وهذا يشابه من يسجد للشرق في الكنيسة مع النصراني ويقول: لله، أو يسجد مع اليهود إلى الصخرة ويقول: لله؛ بل سجد النصراني واليهود لله وإن كان إلى غير قبلة المسلمين خير من السجود لغير الله. بل هذا بمنزلة من يسجد للشمس عند طلوعها وغروبها ويسجد لبعض الكواكب والأصنام ويقولون: لله.

فصل

وأما فساد الأولاد: بحيث يعلمه الشحاذة، ويمنعه من الكسب الحلال، أو يخرجهم ببلاذه مكشوف الشعر... (٣) في الناس، فهذا يستحق / صاحبه العقوبة البليغة، التي تزرجه عن هذا الإفساد، لاسيما إن أدخلوهم في الفواحش، وغير ذلك من المنكرات، ويجب تعليم أولاد المسلمين ما أمر الله بتعليمهم إياه، وتريبتهم على طاعة الله ورسوله، كما قال النبي ﷺ: «مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع» (٤).

١١/٥٠٤

(١) بياض بالأصل .

(٢) مسلم في صلاة المسافرين (١٢٦/٧٣٨)، عن عائشة.

(٣) بياض بالأصل .

(٤) أبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وأحمد ١٨٠/٢، كلاهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

فصل

وأما «النذر للموتى» من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم، فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى. سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك وهو شبه بمن ينذر للكنايس، والرهبان وبيوت الأصنام. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(١)، وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء، وهذا إذا كان النذر لله، وإما إذا كان النذر لغير الله، فهو كمن يحلف بغير الله، وهذا شرك. فيستغفر الله منه، وليس في هذا وفاء ولا كفارة. ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين، فأجره على رب العالمين.

١١/٥٠٥ / وأصل عقد النذر منهى عنه. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»^(٢)، وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج، دون ما لم يكن طاعة لله تعالى.

فصل

فأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب، وخلوهم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة منهن، فهذا حرام باتفاق المسلمين، ومن جعل ذلك من الدين، فهو من إخوان الشياطين. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقال النبي ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان»^(٣)، وقال: «إياكم والدخول على النساء». قالوا: يا رسول الله، أرايت الحموى؟ قال: «الحموى الموت»^(٤) ومن لم يتنه عن ذلك عوقب عقوبة بليغة تزجره، وأمثاله من أهل الفساد والعناد.

(١) سبق تخريجه ص ٥٤ .

(٢) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٩٢) ومسلم فى النذر (١٦٤٠ / ٥ ، ٦) .

(٣) الترمذى فى الرضاع (١١٧١) ، وقال : « حسن صحيح » .

(٤) البخارى فى النكاح (٥٢٣٢) ، ومسلم فى السلام (٢١٧٢ / ٢٠) ، كلاهما عن عقبة بن عامر .

فصل /

وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء والمشائخ والملوك وغيرهم فإنه منهي عنه، غير منعقد باتفاق الأئمة ، ولم ينازعوا إلا في الحلف برسول الله ﷺ خاصة . والجمهور على أنه لا تنعقد اليمين لا به ولا بغيره ، وقد قال النبي ﷺ : « من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت »^(١)، وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك »^(٢) ، فمن حلف بشيخه أو بترته أو بحياته أو بحقه على الله ، أو بالملوك أو بنعمة السلطان أو بالسيف أو بالكعبة أو أبيه أو تربة أبيه أو نحو ذلك كان منهيًا عن ذلك ، ولم تنعقد يمينه باتفاق المسلمين .

فصل

وأما قول القائل لمن أنكر عليه : أنت شرعي ، فكلام صحيح ، فإن أراد بذلك أن الشرع لا يتبعه ، أو لا يجب عليه اتباعه ، وأنا خارج عن اتباعه ، فلفظ الشرع قد صار له في عرف الناس «ثلاث معان» : الشرع المنزل ، والشرع المؤول ، والشرع المبدل .

/ فأما الشرع المنزل : فهو ما ثبت عن الرسول من الكتاب والسنة ، وهذا الشرع يجب على الأولين والآخرين اتباعه ، وأفضل أولياء الله أكملهم اتباعًا له ، ومن لم يلتزم هذا الشرع ، أو طعن فيه أو جوز لأحد الخروج عنه ، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .
وأما المؤول فهو ما اجتهد فيه العلماء من الأحكام ، فهذا من قلد فيه إمامًا من الأئمة ساغ ذلك له ، ولا يجب على الناس التزام قول إمام معين .

وأما الشرع المبدل فهو الأحاديث المكذوبة ، والتفاسير المقلوبة ، والبدع المضلة التي أدخلت في الشرع وليست منه ، والحكم بغير ما أنزل الله . فهذا ونحوه لا يحل لأحد اتباعه .

وإنما حكم الحاكم بالظاهر . والله تعالى يتولى السرائر ، وحكم الحاكم لا يحيل الأشياء عن حقائقها . فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بنحو ما أسمع فمن قضيت له من أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار »^(٣) فهذا قول إمام الحاكم ، وسيد ولد آدم .

/ وقال ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم : فإن أصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »^(٤) .

(١) البخارى فى الشهادات (٢٦٧٩) ومسلم فى الإيمان (٣/١٦٤٦) .

(٢) أحمد ٢ / ٣٤ والترمذى فى النذور (١٥٣٥) وقال : « حديث حسن » .

(٣) سبق تخريجه ص ١٤٦ . (٤) سبق تخريجه ص ١٠٧ .

وقال: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة. رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس بجهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار» (١).

ومن خرج عن الشرع الذي بعث الله به محمداً ﷺ ظاناً أنه متبع للحقيقة. فإنه مضاه للمشركين المكذبين للرسل، وللفظ «الحقيقة» يقال: على «حقيقة كونية» و «حقيقة بدعية» و «حقيقة شرعية».

فـ «الحقيقة الكونية» مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه. وهذا مما يجب أن يؤمن به، ولا يجوز أن يحتج به، بل لله علينا الحجة البالغة. فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر عن المعاصي فعذره غير مقبول.

وأما «الحقيقة البدعية» فهي سلوك طريق الله سبحانه وتعالى، مما يقع في قلب العبد من الذوق والوجد، والمحبة والهوى، من غير اتباع الكتاب والسنة، كطريق النصارى، فهم تارة يعبدون غير الله، وتارة يعبدون بغير أمر الله. كالنصارى المشركين الذين اتخذوا أحبارهم / ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وابتدعوا الرهبانية فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله. وأما دين المسلمين فكما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَلْوَكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قالوا: وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وأما «الحقيقة الدينية» وهي تحقيق ما شرعه الله ورسوله، مثل الإخلاص لله، والتوكل على الله، والخوف من الله، والشكر لله، والصبر لحكم الله، والحب لله ورسوله، والبغض في الله ورسوله، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله، فهذا حقائق أهل الإيمان، وطريق أهل العرفان.

(١) سبق تخريجه ص ١٤٥ .

فصل /

والأمر بالمعروف، وهو الحق الذي بعث الله به رسوله. والنهي عن المنكر، وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور، بل هو من أعظم الواجبات، وأفضل الطاعات، بل هو طريق أئمة الدين. ومشائخ الدين، يقتدى بهم فيه. قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهذه الآية بها استدلل المستدلون على أن شيوخ الدين، يقتدى بهم في الدين، فمن لم يأمر بالمعروف وبنه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين، ولا ممن يقتدى به.

فصل

وأما لباس الخرقة التي يلبسها بعض المشائخ المريدين، فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشائخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها المريدين. ولكن طائفة من / المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه، وقد استدلل بعضهم بأن النبي ﷺ ألبس أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ثوباً، وقال لها: سنا، والسنا بلسان الحبشة الحسن^(١). وكانت قد ولدت بأرض الحبشة، فلهذا خاطبها بذلك اللسان، واستدلوا أيضاً بحديث البردة التي نسجتها امرأة للنبي ﷺ. فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها وقال: «أردت أن تكون كفتاً لي»^(٢).

وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه، فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه كأعطائه إياه ما يتفعه، وأخذ ثوب من النبي ﷺ على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء، ولكن يشبه من بعض الوجوه خلع الملوك التي يخلعونها على من يولونه كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة ولهذا يسمونها تشريقاً، وهذا ونحوه غايته أن يجعل من جنس المباحات فإن اقترن به نية صالحة كان حسناً من هذه الجهة، وأما جعل ذلك سنة وطريقاً إلى الله سبحانه وتعالى فليس الأمر كذلك.

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين: فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن. كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون؛ وبذلك

(١) انظر: البخاري في اللباس (٥٨٢٣، ٥٨٤٥)، عن أم خالد بنت العاص.

(٢) البخاري في الأدب (٦٠٣٦)، عن سهل بن سعد.

يحصل اتباع السابقين / الأولين بإحسان ، فكما أن المرأ له من يعلمه القرآن ونحوه ، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر ، ولا يتعين ذلك في شخص معين ، ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين ، كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها ، وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه الجهة ، فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرناً بعد قرن ، وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعتة ، ويعادي على ذلك ، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ، ولا يخص أحداً بمزيد موالاة ، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه ، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه ، ويفضل من فضله الله ورسوله ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقال النبي ﷺ : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى »^(١) .

/ فصل

وأما قول القائل : أنت للشيخ فلان ، وهو شيخك في الدنيا والآخرة .

فهذه بدعة منكورة من جهة أنه جعل نفسه لغير الله ، ومن جهة أن قوله : شيخك في الدنيا والآخرة كلام لا حقيقة له ، فإنه إن أراد أنه يكون معه في الجنة ، فهذا إلى الله لا إليه ، وإن أراد أنه يشفع فيه فلا يشفع أحد لأحد إلا بإذن الله تعالى ، إن أذن له أن يشفع فيه وإلا لم يشفع ، وليس بقوله : أنت شيخي في الآخرة يكون شافعاً له - هذا إن كان الشيخ ممن له شفاعة - فقد تقدم أن سيد المرسلين والخلق لا يشفع حتى يأذن الله له في الشفاعة بعد امتناع غيره منها . وكم من مدع للمشيخة وفيه نقص من العلم والإيمان ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقول القائل : لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به هو من كلام أهل الشرك والبهتان ، فإن عباد الأصنام أحسنوا ظنهم بها فكانوا هم وإياها من حصب جهنم ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا / تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] . لكن قال النبي ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ »

(١) أحمد ٥ / ٤١١ ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٣ / ٢٦٩) وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً. وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١) ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك، ولا يستحب له ذلك، بل يكره له .

وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين، يعلمونه ويؤدّبونه لا يبدّلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه، فإنه يفعل الأصلح لدينه، وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده .

فأما الانتساب الذي يفرق بين المسلمين ، وفيه خروج عن الجماعة والائتلاف إلى الفرقة، وسلوك طريق الابتداع، ومفارقة السنة والاتباع، فهذا مما ينهى عنه، ويأثم فاعله، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله ﷺ .

فصل /

١١/٥١٥

وأما قول القائل : إن الله يرضى لرضا المشائخ ، ويغضب لغضبهم .

فهذا الحكم ليس هو لجميع المشائخ، ولا مختص بالمشائخ، بل كل من كان موافقاً لله يرضى ما يرضاه الله، ويسخط ما يسخط الله كان الله، يرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، من المشائخ وغيرهم، ومن لم يكن كذلك من المشائخ، لم يكن من أهل هذه الصفة، ومنه قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان قد جرى بينه وبين صهيب وخباب وبلال وغيرهم كلام في أبي سفيان بن حرب ؛ فإنه مر بهم فقالوا : ما أخذت السيف من عدو الله مأخذها . فقال : أتقولون هذا لكبير قریش ؟ ودخل على النبي ﷺ فأخبره، فقال : «لعلك أغضبتهم يا أبا بكر، لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك» أو كما قال . قال : فخرج عليهم أبو بكر فقال لهم : يا إخواني، أغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أبا بكر^(٢)، فهؤلاء كان غضبهم لله .

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال : « يقول / الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبني يسمع، وبني يبصر، وبني يبطش، وبني

١١/٥١٦

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥ / ٢) .

(٢) مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٠٤ / ١٧٠)، وأحمد ٦٤ / ٥، كلاهما عن عائذ بن عمرو .

يمشي، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (١) .

فهذا المؤمن الذي تقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض أحبه الله لأنه فعل ما أحبه الله، والجزاء من جنس العمل. قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وفي الحقيقة فالعبد الذي يرضى الله لرضاه، ويغضب لغضبه، هو يرضى لرضا الله، ويغضب لغضب الله وليكن هذان مثالان: فمن أحب ما أحب الله، وأبغض ما أبغض الله، ورضى ما رضى الله لما يرضى الله، ويغضب لما يغضب، لكن هذا لا يكون للبشر على سبيل الدوام، بل لابد لأكمل الخلق أن يغضب أحياناً غضب البشر، ويرضى رضا البشر.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «اللهم إنما أنا بشر أعضب كما يغضب البشر، فأبأ مسلم سبته أو لعنته وليس لذلك بأهل فاجعل ذلك له صلاة وزكاة وقربة تقربه إليك يوم القيامة» (٢)، / وقول النبي ﷺ لأبي بكر: «لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» في قضية معينة، لكون غضبه لأجل أبي سفيان وهم كانوا يغضبون لله، وإلا فأبو بكر أفضل من ذلك، وبالجملية فالشيوخ والملوك وغيرهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله أطيعوا، وإن أمروا بخلاف ذلك لم يطاعوا، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وليس أحد معصوماً إلا رسول الله ﷺ، وهذا في الشيخ الذي ثبت معرفته بالدين وعمله به.

وأما من كان مبتدعاً بدعة ظاهرة، أو فاجراً فجوراً ظاهراً. فهذا إلى أن تنكر عليه بدعته وفجوره، أحوج منه إلى أن يطاع فيما يأمر به، لكن إن أمر هو أو غيره بما أمر الله به ورسوله، وجبت طاعة الله ورسوله، فإن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، في كل حال، ولو كان الأمر بها كائناً من كان.

(١) سبق تخريجه ص ١٦ .

(٢) البخاري في الدعوات (٦٣٦١)، ومسلم في البر والصلة (١/٢٦٠-٩٣-٩٣)، وأحمد ٣١٧/٢، ٤٩٣، كلهم عن أبي هريرة.

فصل

وأما قوله ﷺ : «المرء مع من أحب»^(١) فهو من أصح الأحاديث . وقال أنس : فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث ، فانا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أحشر / معهم ، وإن لم أعمل مثل أعمالهم ، وكذلك «أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله»^(٢) لكن هذا بحيث أن يحب المرء ما يحبه الله ومن يحب الله ، فيحب أنبياء الله كلهم ، لأن الله يحبهم ويحب كل من علم أنه مات على الإيمان والتقوى ، فإن هؤلاء أولياء الله ، والله يحبهم كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة وغيرهم من أهل بدر وأهل بيعة الرضوان .

١١/٥١٨

فمن شهد له النبي ﷺ بالجنة شهدنا له بالجنة ، وأما من لم يشهد له بالجنة ، فقد قال طائفة من أهل العلم : لا نشهد له بالجنة ولا نشهد أن الله يحبه ، وقال طائفة : بل من استفسى من بين الناس إيمانه وتقواه ، واتفق المسلمون على الثناء عليه ، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي^(٣) وعبد الله بن المبارك - رضي الله عنهم - وغيرهم ، شهدنا لهم بالجنة ؛ لأن في الصحيح : أن النبي ﷺ مر عليه بجنزة فأنثوا عليها خيراً فقال : «وجبت ، وجبت» ، ومر عليه بجنزة ، فأنثوا عليها شراً ، فقال : «وجبت ، وجبت» . قالوا : يا رسول الله ، ما قولك : وجبت ، وجبت ؟ قال : «هذه الجنزة أنثيتم عليها خيراً فقلت : وجبت لها الجنة ، وهذه الجنزة أنثيتم عليها شراً فقلت : وجبت لها النار» ، قيل : / بم يا رسول الله ؟ قال : « بالثناء الحسن ، والثناء السيئ »^(٤) .

١١/٥١٩

وإذا علم هذا فكثير من المشهورين بالمشيخة في هذه الأزمان ، قد يكون فيهم من الجهل والضلال والمعاصي والذنوب ما يمنع شهادة الناس لهم بذلك ، بل قد يكون فيهم المنافق والفساق ، كما أن فيهم من هو من أولياء الله المتقين ، وعباد الله الصالحين ، وحزب الله المفلحين ، كما أن غير المشائخ فيهم هؤلاء . وهؤلاء في الجنة ، والتجار والفلاحون وغيرهم من هذه الأصناف .

(١) سبق تخريجه ص ٣٣ . (٢) سبق تخريجه ص ٩٢ .

(٣) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز ، وقيل : الفيروزان ، وقيل : علي الكرخي الصالح المشهور ، وكان أبواه نصرانيين ، فأسلماه إلى مؤيديهم ، وهو صبي ، فكان المؤيد يقول له : قل : ثالث ثلاثة ، فيقول معروف : بل هو الواحد ، فضربه المعلم على ذلك ضرباً مبرحاً فهرب منه . وكان أبواه يقولان : ليت رجعا إلينا على أي دين شاء فتوافقه عليه . فرجع فدق الباب فقبل : من الباب ؟ فقال : معروف ، فقبل له : على أي دين ؟ فقال : على الإسلام ، فأسلم أبواه ، وكان مشهوراً بإجابة الدعوة ، توفي سنة مائتين ، وقيل : إحدى ومائتين ، وقيل غير ذلك . [وفيات الأعيان ٥/ ٢٣١-٢٣٣] .

(٤) البخاري في الجنائز (١٣٦٧) ومسلم في الجنائز (٩٤٩ / ٦٠) .

إذا كان كذلك فمن طلب أن يحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالاً، بل عليه أن يأخذ بما يعلم، فيطلب أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده. كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحریم: ٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، وعلى هذا فمن أحب شيخاً مخالفاً للشرعة كان معه، فإذا دخل الشيخ النار كان معه، ومعلوم أن الشيوخ المخالفين للكتاب والسنة أهل الضلال والجهالة، فمن كان معهم كان مصيره مصير أهل الضلال والجهالة، وأما من كان من أولياء الله المتقين: كآبي بكر وعمر وعثمان /وعلي وغيرهم، فمحبته هؤلاء من أوثق عرى الإيمان، وأعظم حسنات المتقين.

١١/٥٢٠

ولو أحب الرجل لما ظهر له من الخير الذي يحبه الله ورسوله، أثابه الله على محبة ما يحبه الله ورسوله، وإن لم يعلم حقيقة باطنه، فإن الأصل هو حب الله وحب ما يحبه الله، فمن أحب الله وأحب ما يحبه الله كان من أولياء الله. وكثير من الناس يدعي المحبة من غير تحقيق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال بعض السلف: ادعى قوم على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية، فمحبته الله ورسوله وعباده المتقين تقتضي فعل محبوباته، وترك مكروهاته، والناس يتفاضلون في هذا تفاضلاً عظيماً، فمن كان أعظم نصيباً من ذلك، كان أعظم درجة عند الله.

وأما من أحب شخصاً لهواه، مثل أن يحبه لدنيا يصيبها منه، أو لحاجة يقوم له بها، أو لمال يتأكله به، أو بعصية فيه، ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله، بل هذه محبة لهوى النفس، وهذه المحبة هي التي توقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان، وما أكثر من يدعي حب مشائخ لله، ولو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي /أحبهم لأجله، فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير.

١١/٥٢١

وكيف يحب شخصاً لله من لا يكون محباً لله، وكيف يكون محباً لله من يكون معرضاً عن رسول الله ﷺ وسبيل الله. وما أكثر من يحب شيوخاً أو ملوكاً أو غيرهم فيتخذهم أنداداً يحبهم كحب الله.

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر، فأهل الشرك يتخذون أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله، وأهل الإيمان يحبون ذلك، لأن أهل الإيمان أصل حبهم هو حب الله، ومن أحب الله أحب من يحبه، ومن أحبه الله، فمحبوب المحبوب محبوب، ومحبوب الله يحب الله، فمن أحب الله فيحبه من أحب الله.

وأما أهل الشرك فيتخذون أنداداً أو شفعاء يدعونهم من دون الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفْعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون . إِنِّي إِذَا / لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ [يس: ٢٢ - ٢٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١] ، وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩ ، ٨٠] .

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ، ليكون الدين كله لله ، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد »^(١) فالدين واحد وإن تفرقت الشريعة والمنهاج ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

ومن حين بعث الله محمداً ﷺ ما يقبل من أحد بلغته الدعوة إلا الدين الذي بعثه به فإن دعوته عامة لجميع الخلائق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨] . وقال ﷺ : « لا يسمع بى من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن / بى إلا دخل النار »^(٢) ، قال الله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ

(١) سبق تخريجه ص ١٢٤ .

(٢) مسلم فى الإيمان (١٥٣ / ٢٤٠) ، عن أبى هريرة .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٨] .

فعلى الخلق كلهم اتباع محمد ﷺ ، فلا يعبدون إلا الله ، ويعبدونه بشريعة محمد
ﷺ ، لا غيرها ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُتَّقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٨، ١٩] ، ويجتمعون على ذلك ولا يفرقون ، كما ثبت في الصحيح
عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن
تعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » (١) وعادة الله
تتضمن كمال محبة الله ، وكمال الذل لله ، فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله
/ هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه ، والإله ما تأله القلوب
بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك .

والله - سبحانه - أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو ، فتخلوا القلوب عن محبة ما سواه
بمحبة ، وعن رجاء ما سواه برجائه ، وعن سؤال ما سواه بسؤاله ، وعن العمل لما سواه
بالعمل له ، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به ، ولهذا كان وسط الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى :
قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ، نصفين ، فإذا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، قال الله :
حمدني عبدي ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ، قال : أثني على عبدي ، وإذا قال : ﴿ مَالِكُ
يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، قال : مجدني عبدي . وإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، قال : هذه الآية
بينى وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل ، وإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، قال : هؤلاء لعبدى ولعبدى ما
سأل » (٢) .

فوسط السورة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فالدين ألا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا
إياه ، والملائكة والأنبياء وغيرهم عباد الله كما قال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ / يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا
وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٢ ،
١٧٣] ، فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح ، وحب اليهود لموسى وحب الرافضة

(١) سبق تخريجه ص ٥٥ .

(٢) مسلم في الصلاة (٣٨/٣٩٥) .

لعلى ، وحب الغلاة لشيخوهم وأئمتهم : مثل من يوالى شيخاً أو إماماً وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان فى الرتبة ، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم ، وحال أهل العصية من المنتسبين إلى فقه وزهد الذين يوالون بعض الشيوخ والأئمة دون البعض ، وإنما المؤمن من يوالى جميع أهل الإيمان . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ، وقال النبى ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »^(١) وشبك بين أصابعه ، وقال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر »^(٢) ، وقال عليه السلام : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً »^(٣) .

ومما يبين الحب لله والحب لغير الله : أن أبا بكر كان يحب النبى ﷺ مخلصاً لله ، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله ، فقبل الله عمل أبى بكر وأنزل فيه : ﴿ وَسَيَجْزِيهِ اللَّهُ الَّذِي / يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١] ، وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله ، بل أدخله النار ، لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله . وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق ، لا من النبى ولا من غيره ، بل آمن به وأحبه وكلاه وأعانه بنفسه ، وماله متقرباً بذلك إلى الله وطالبا الأجر من الله ورسوله ، يبلغ عن الله أمره ونهيه ووعده ووعيده ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] .

والله هو الذى يخلق ويرزق، ويعطى ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، وهو سبحانه مسبب الأسباب ، ورب كل شىء ومليكه .

والأسباب التى يفعلها العباد مما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك ، وأما ما ينهى عنه نهياً خالصاً ، أو كان من البدع التى لم يأذن الله بها فهذا لا يسلك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] ، بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم المبين ، أن المخلوقين لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ثم بين أنه لا شركة لهم ، ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير ، لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق . كما يقول بعضهم : إذا كانت / لك حاجة استوصى الشيخ فلان ، فإنك تجده ، أو توجه إلى ضريحه خطوات وناده ، يا شيخ ، يقضى حاجتك ، وهذا غلط ، لا يحل فعله وإن كان من هؤلاء الداعين لغير

(١-٣) سبق تخريجها ص ٥٥ .

الله من يرى صورة المدعو أحياناً فذلك شيطان تمثل له . كما وقع مثل هذا لعدد كثير .

ونظير هذا قول بعض الجهال من أتباع الشيخ عدى وغيره : كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده ، والعجب من ذى عقل سليم يستوصى من هو ميت ، يستغيث به ، ولا يستغيث بالحي الذى لا يموت ، ويقوى الوهم عنده أنه لولا استغاثته بالشيخ الميت لما قضيت حاجته ، فهذا حرام فعله .

ويقول أحدهم : إذا كانت لك حاجة إلى ملك توصلت إليه بأعوانه ، فهذه كذا يتوصل إليه بالشيوخ . وهذا كلام أهل الشرك والضلال ، فإن الملك لا يعلم حوائج رعيته ، ولا يقدر على قضائها وحده ، ولا يريد ذلك إلا لغرض يحصل له بسبب ذلك ، والله أعلم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، وهو على كل شيء قدير ، فالأسباب منه وإليه ، وما من سبب من الأسباب ، إلا دائر موقوف على أسباب أخرى ، وله معارضات ، فالتار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً ، فلا تحرق السمندل ، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل إبراهيم عليه السلام .

١١/٥٢٨ / وأما مشيئة الرب فلا تحتاج إلى غيره ولا مانع لها ، بل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وهو - سبحانه - أرحم من الوالدة بولدها : **يَحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيَرْحَمُهُمْ** ، ويكشف ضرهم ، مع غناه عنهم ، وافتقارهم إليه ، **﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾** [الشورى : ١١] .

فنفى الرب هذا كله فلم يبق إلا الشفاعة . فقال : **﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾** ، [سبا : ٢٣] وقال : **﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾** [البقرة : ٢٥٥] ، فهو الذى يأذن فى الشفاعة ، وهو الذى يقبلها ، فالجميع منه وحده ، وكلما كان الرجل أعظم إخلاصاً ، كانت شفاعته الرسول أقرب إليه . قال له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » (١) .

وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى ، ويتعلقون بفلان ، فهؤلاء من جنس المشركين الذين اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى . قال الله تعالى : **﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ . قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾** [الزمر : ٤٣ ، ٤٤] ، وقال الله تعالى : **﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾** [السجدة : ٤] ، وقال : **﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ / إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ**

١١/٥٢٩

(١) البخارى فى العلم (٩٩) .

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] .

قال طائفة من السلف : كان قوم يدعون المسيح والعزير والملائكة فينب الله تعالى أن هؤلاء الملائكة والأنبياء عباده ، كما أن هؤلاء عباده وهؤلاء يتقربون إلى الله ، وهؤلاء يرجون رحمة الله، وهؤلاء يخافون عذاب الله . فالمشركون اتخذوا مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله ، ففيهم محبة لهم وإشراك بهم ، وفيهم من جنس ما في النصارى من حب المسيح وإشراك به ، والمؤمنون أشد حبا لله ؛ فلا يعبدون إلا الله وحده ، ولا يجعلون معه شيئا يحبونه كمحبته لا أنبيائه ولا غيرهم ، بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله ، وأخلصوا دينهم لله ، وعلموا أن أحدا لا يشفع لهم إلا بإذن الله ، فأحبوا عبد الله ورسوله محمداً ﷺ لحب الله ، وعلموا أنه عبد الله المبلغ عن الله ، فأطاعوه فيما أمر ، وصدقوه فيما أخبر ، ولم يرجوا إلا الله ، ولم يخافوا إلا الله ، ولم يسألوا إلا الله ، وشفاعته لمن يشفع له هو بإذن الله ، فلا ينفع رجاؤنا للشفيع ، ولا مخافتنا له ، وإنما ينفع توحيدنا ، وإخلاصنا لله ، وتوكلنا عليه ، فهو الذي يأذن للشفيع .

فعلى المسلم أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم، ومحبة النصارى / والمشركون ودينهم، ويتبع أهل التوحيد والإيمان ، ويخرج عن مشابهة المشركين ، وعبد الصليان .

١١/٥٣

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » (١) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وهذا باب واسع ، ودين الإسلام مبني على هذا الأصل ، والقرآن يدور عليه .

(١) البخارى فى الإيمان (١٦) ومسلم فى الإيمان (٦٧/٤٣) .

١١/٥٣١ / سئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة في الفساد ، وتعلق كل منهم بسبب ، واستند إلى قول قيل : فمنهم من هو مكب على حضور السماعات المحرمة التي تعمل بالدفوف ، التي بالجلال ، والشبابات المعروفة في هذا الزمان . ويحضرها مردان والنسوان ، ويستند في ذلك إلى دعوى جواز حضور السماع عند الشافعي وغيره من الأئمة .

فأجاب :

١١/٥٣٢ أما السماعات المشتملة على الغناء والصفارات والدفوف المصلصات ، فقد اتفق أئمة الدين أنها ليست من جنس القرب والطاعات بل ولو لم يكن على ذلك ، كالغناء والتصفيق باليد ، والضرب بالقضيب والرقص ونحو ذلك ، فهذا وإن كان فيه ما هو مباح ، وفيه ما هو مكروه ، وفيه ما هو محظور ، أو مباح للنساء دون الرجال - فلا نزاع بين أئمة الدين أنه ليس من جنس القرب ، والطاعات والعبادات ولم يكن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين وغيرهم من مشايخ الدين / يحضرون مثل هذا السماع ، لا بالحجاز ، ولا مصر ، ولا الشام ، ولا العراق ، ولا خراسان ، لا في زمن الصحابة ، والتابعين ، ولا تابعيهم .

لكن حدث بعد ذلك . فكان طائفة يجتمعون على ذلك ، ويسمون الضرب بالقضيب على جلال ونحوه « التغيير » .

قال الحسن بن عبد العزيز الخرائي : سمعت الشافعي يقول : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغيير ، يصدون به الناس عن القرآن ، وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين ، فإن القلب إذا تعود سماع القصائد والآيات والتذ بها ، حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات ، فيستغنى بسماع الشيطان عن سماع الرحمن .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »^(١) وقد فسرهُ الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما بأنه من الصوت فيحسنه بصوته ، ويترنم به ، بدون التلحين المكروه ، وفسرهُ ابن عيينة وأبو عبيد وغيرهما بأنه الاستغناء به ، وهذا وإن كان له معنى صحيح فالأول هو الذي دل عليه الحديث ، فإنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »

(١) البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) .

يجهر به^(١) وفى الأثر : « إن العبد إذا ركب الدابة أتاه الشيطان وقال له : تغن ، فإن لم يتغن . قال له : تمن « فإن / النفس لا بد لها من شىء فى الغالب تترنم به . فمن لم يترنم بالقرآن ترنم بالشعر .

١١/٥٣٣

وسماع القرآن هو سماع النبيين والمؤمنين والعارفين والعالمين . قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ الآية [مريم: ٥٨] ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﴾ الآية [المائدة: ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ... ﴾ الآيتين [الإسراء: ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ الآية [الزمر: ٢٣] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأَنْفَال: ٢] .

وهذا « السماع » هو الذى شرعه الله للمؤمنين فى الصلاة وخارج الصلاة ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ : إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والناس يستمعون .

ومر النبي ﷺ بأبى موسى وهو يقرأ . فجعل يستمع لقراءته . وقال : « مررت بك البارحة وأنت تقرأ . فجعلت أستمع لقراءتك » فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً ، أى : لحسنه تحسيناً^(٢) ، وكان عمر يقول لأبى موسى : ذكرنا ربنا : فيقرأ وهم يستمعون لقراءته . وقال النبي ﷺ لابن مسعود : « اقرأ على القرآن » . فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟! قال : / « إني أحب أن أسمعه من غيرى » . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء: ٤١] ، فقال : « حسبك » فنظرت فإذا عيناه تذرفان بالدمع^(٣) . فهذا هو السماع الذى يسمعه سلف الأمة ، وقرونها المفضلة . وخيار الشيوخ إنما يقولون بهذا السماع .

١١/٥٣٤

وأما الاستماع إلى القصائد الملحنة والاجتماع عليها . فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع ، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والسرى السقطي وأمثالهم من المتأخرين : كالشيخ عبد القادر ، والشيخ عدى بن مسافر ، والشيخ أبى مدين ، والشيخ أبى البيان ، وأمثال هؤلاء المشائخ ؛ فإنهم لم يكونوا يحضرون هذا السماع ، وقد حضره طائفة من الشيوخ وأكابرهم ثم تابوا منه ورجعوا عنه . وكان الجنيد - رحمه الله تعالى - لا يحضره فى آخر عمره . ويقول : من تكلف السمع فتن به ، ومن صادفه السمع استراح به ، أى من قصد السماع صار مفتوناً ، وأما من سمع بيتاً يناسب حاله بلا اقتصاد فهذا يستريح به .

(١) سبق تخريجهما ص ١٦٤ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٩ .

والذين حضروا السماع المحدث الذى جعله الشافعى من إحداث الزنادقة ، لم يكونوا يجتمعون مع مردان ونسوان ، ولا مع مصلصلات وشبابات وكانت أشعارهم مزهدات مرققات .

١١/٥٣٥ / فأما « السماع » المشتمل على منكرات الدين ، فمن عده من القربات استتيب ، فإن تاب وإلا قتل . وإن كان متأولاً جاهلاً بين له خطأ تأويله ، بين له العلم الذى يزيل الجهل . هذا من كونه طريقاً إلى الله .

وأما كونه محرماً على من يفعله على وجه اللهو واللعب لا على وجه القربة إلى الله ، فهذا فيه تفصيل ، فأما المشتمل على الشبابات والدفوف المصلصلة ، فمذهب الأئمة الأربعة تحريمه ، وذكر أبو عمرو بن الصلاح^(١) أن هذا ليس فيه خلاف فى مذهب الشافعى ، فإن الخلاف إنما حكى فى اليراع المجرد ، مع أن العراقيين من أصحاب الشافعى لم يذكروا فى ذلك نزاعاً ، ولا مقدمة الخراسانيين ، وإنما ذكره متأخرو الخراسانيين .

وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره أن النبى ﷺ ذكر الذين يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف على وجه الذم لهم وإن الله معاقبهم^(٢) . فدل هذا الحديث على تحريم المعازف . والمعازف هى آلات اللهو عند أهل اللغة ، وهذا اسم يتناول هذه الآلات كلها .

١١/٥٣٦ ولهذا قال الفقهاء : إن من أتلفها فلا ضمان عليه إذا أزال التالف / المحرم ، وإن أتلف المالية ففيه نزاع ، ومذهب أحمد المشهور عنه . ومالك أنه لا ضمان فى هذه الصور أيضاً ، وكذلك إذا أتلف دنان الخمر ، وشق ظروفه وأتلف الأصنام المتخذة من الذهب ، كما أتلف موسى عليه السلام العجل المصنوع من الذهب وأمثال ذلك .

(١) أبو عمرو بن الصلاح هو : تقي الدين أبو عمرو عثمان ابن المفتى صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزورى الموصلى الشافعى ، ولد سنة سبع وسبعين وخمسائة ، تفقه على والده بشهرزور ، سمع من كثير ، منهم عبد الله بن السمين ، ونصر بن سلامة وغيرهم ، قالوا عنه : إنه إمام ورع وافر العقل ، حسن السمعة ، متبحر فى الأصول والفروع ، توفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة . [سير أعلام النبلاء : ٢٣ / ١٤٠ - ١٤٤] .

(٢) البخارى فى الأشربة (٥٥٩٠) ، عن أبى عامر وأبى مالك الأشعرى .

/ وسئل عمن يؤاخي النسوان ، ويظهر شيئاً من جنس الشعبذة ، كنقش شيء من القطن أو الخرقه بالأذن ، أو بغير ذلك ، أو يمسك النار مباشرة بكفه أو بأصابعه بلا حائل بينه وبينها... إلخ .

فأجاب :

وأما مؤاخاة النساء ، وإظهار الإشارات المذكورة ، فهي من أحوال إخوان الشياطين ، وأصحاب هذه الإشارات ليس فيهم ولى لله ، بل هم بين حال شيطاني ، ومحال بهتاني ، من حال إبليس ومحال تلييس .

وهؤلاء أصل حالهم أن الشياطين تنزل على من يعمل ما يحبه الشيطان من الكذب والفجور ، فإذا خرج أحدهم عن العقل والدين وصار من المهوكين - الذين يطيعون الشيطان ، ويعصون الرحمن ، وله شخير ونخير كأصوات الحمير ، يحضر أحدهم السماع ، ويؤاخون النسوان ، ويتخذون الجيران ويرقصون كالقرود ، وينقرون فى صلاتهم الركوع والسجود ، يغضون سماع القرآن واتباع شريعة الرحمن - تنزلت عليهم الشياطين التى تنزل على كل أفاك أثيم . فمنهم من ترفعه / فى الهواء ، ومنهم من تدخله النار ، ومنهم من يمشى ومعه ضوء يريه أن ذلك كرامات ، ومنهم من يستغيث بالشيخ ويخاطب من يستغيث بالشيخ حتى يرى أن ذلك كرامة للشيخ ، ومنهم من يحضر طعاماً وفاكهة وحلوى ، إلى أمور أخرى قد عرفناها ، وعرفنا من وقعت له هذه الأمور ، وأضعافها .

فإذا تاب الرجل ، والتزم دين الإسلام ، وصلى صلاة المسلمين ، وتاب عما حرمه رب العالمين ، واعتاض بسماع القرآن عن سماع الشيطان ، ذهب تلك الأحوال الشيطانية ، فإن قوى إيمانه حصلت له مقامات الصالحين وإلا كفاه أن يكون من أهل جنة النعيم ، وهذا بين يعرف المسلم أن هذه الأحوال شيطانية لا كرامات إيمانية .

١١/٥٣٩ / وسئل عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة من الفساد ، ومنهم من يقول : إن غاية التحقيق ، وكمال سلوك الطريق ، ترك التكليف : بحيث إنه إذا ألزم بالصلاة يقوم ، ويقول : خرجنا من الحضرة ووقفنا بالباب .

فأجاب :

أما من جعل كمال التحقيق الخروج من التكليف ، فهذا مذهب الملاحدة من القرامطة والباطنية ، ومن شابههم من الملاحدة المنتسبين إلى علم أو زهد أو تصوف أو تزهد .

يقول : أحدهم إن العبد يعمل حتى تحصل له المعرفة ، فإذا حصلت زال عنه التكليف ، ومن قال هذا فإنه كافر مرتد باتفاق أئمة الإسلام ، فإنهم متفقون على أن الأمر والنهي جار على كل بالغ عاقل إلى أن يموت قال تعالى : ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] . قال الحسن البصري : لم يجعل الله لعمل المؤمن غاية دون الموت ؛ وقرأ هذه الآية . و«اليقين» هنا ما بعد الموت . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٦ ، ٤٧] ، ومنه قول النبي ﷺ في / الحديث الصحيح لما مات

١١/٥٤٠ عثمان بن مظعون : « أما عثمان فإنه أتاه اليقين من ربه »^(١) ، وقد سئل الجنيد بن محمد - رحمه الله تعالى - عن يقول : إنه وصل من طريق البر إلى أن تسقط عنه الأعمال .

فقال : الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء ، ولقد صدق الجنيد - رحمه الله - فإن هذه كبائر ، وهذا كفر ونفاق ، والكبائر خير من الكفر ، والنفاق .

وقول الواحد من هؤلاء : خرجنا من الحضرة إلى الباب ، كلمة حق أريد بها باطل ، فإنهم خرجوا من حضرة الشيطان ، إلى باب الرحمن ، كما يحكى عن بعض شيوخ هؤلاء : أنهم كانوا في سماع ، فأذن المؤذن فقام إلى الصلاة . فقال : كنا في الحضرة ، فصرنا إلى الباب ، ولا ريب أنه كان في حضرة الشيطان ، فصار على باب الرحمن ، أما كونه أنه كان في حضرة الله ، فصار على بابه ، فهذا ممتنع عند من يؤمن بالله ورسوله ، فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ : « بأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد »^(٢) وقد قال النبي ﷺ :

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٩ .

(٢) مسلم في الصلاة (٤٨٢/٢١٥) .

« استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » (١) .

وفي الصحيح عن ابن مسعود . عن النبي ﷺ أنه / سئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الصلاة على مواقيتها » (٢) ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « أول ما يحاسب عليه العبد من عمله صلاته » (٣) ، وآخر شيء وصى به النبي ﷺ أمته الصلاة ، وكان يقول : « جعلت قرعة عيني في الصلاة » (٤) ، وكان يقول : « أرحنا يا بلال بالصلاة » (٥) ، ولم يقل : أرحنا منها ، فمن لم يجد قرعة عينه وراحة قلبه في الصلاة ، فهو منقوص الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقال النبي ﷺ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » (٦) .

وهذا باب واسع ، لا ينكره من آمن بالله ورسوله .

(١) أحمد ٢٧٧/٥ وابن ماجه فى الطهارة (٢٢٧) .

(٢) سبق تخريجه ص ١١٢ .

(٣) أبو داود فى الصلاة (٨٦٤) والترمذى فى الصلاة (٤١٣) وقال : « حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

(٤) أحمد ١٢٨/٣ والنسائى فى عشرة النساء (٣٩٣٩ ، ٣٩٤٠) .

(٥) أبو داود فى الأدب (٤٩٨٦) ، وأحمد ٣٦٤/٥ .

(٦) سبق تخريجه ص ١١٣ .

/ سئل شيخ الإسلام الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية - رحمه الله - عما

أحدثه الفقراء المجردون ، والمطوعون من صحبة الشباب ، ومؤاخذة النسوان والماجريات ، وحط رؤوسهم بين يدي بعضهم بعضاً ، وأكلهم مال بعضهم بعضاً بغير حق ، ومن جنى يشال تحت رجله ، ويضرب بغير حق ، ووقوفهم مكشوفو الرؤس ، منحنين كالراكعين ، ووضع النعال على رؤوسهم ، ولباسهم الصوف ، والرقع ، والسجادة والسبحة ، وأكل الحشيشة . وإذا جاءهم أمرد فرضوا عليه أن يصحبه واحد منهم ، ويطلبوا منه الصحبة ، هل يجوز ذلك ؟ أو نقل عن الصحابة ؟

فأجاب :

الحمد لله ، أما صحبة المردان ، على وجه الاختصاص بأحدهم - كما يفعلونه - مع ما ينضم إلى ذلك من الخلوة بالأمرد الحسن ، ومبيته مع الرجل ، ونحو ذلك ، فهذا من أفحش المنكرات عند المسلمين ، وعند اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام ودين سائر الأمم ، بعد قوم لوط : تحريم الفاحشة اللوطية ، ولهذا بين الله في كتابه أنه لم يفعلها قبل قوم لوط أحد من العالمين ، وقد عذب الله / المستحلين لها بعذاب ما عذبه أحداً من الأمم ، حيث طمس أبصارهم وقلب مدائنهم ، فجعل عليها سافلها ، وأتبعهم بالحجارة من السماء .

ولهذا جاءت الشريعة بأن الفاحشة التي فيها القتل : يقتل صاحبها بالرجم بالحجارة ، كما رجم النبي ﷺ اليهوديين وماعز بن مالك الأسلمي والغامدية وغيرهم ، ورجم بعده خلفاؤه الراشدون .

والرجم شرعه الله لأهل التوراة والقرآن ، وفي السنن عن النبي ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به »^(١) . ولهذا اتفق الصحابة على قتلهما جميعاً ، لكن تنوعوا في صفة القتل : فبعضهم قال : يرجموا : وبعضهم قال : يرمى من أعلى جدار في القرية ويتبع بالحجارة ، وبعضهم قال : يحرق بالنار ، ولهذا كان مذهب جمهور السلف والفقهاء أنهما يرجمان بكرين كانا أو ثيبين ، حرين كانا أو مملوكين ، أو كان

(١) أبو داود في الحدود (٤٤٦٢) والترمذي في الحدود (١٤٥٦) .

أحدهما مملوكاً للآخر ، وقد اتفق المسلمون على أن من استحلها بمملوك أو غير مملوك فهو كافر مرتد .

وكذلك مقدمات الفاحشة عند التذاذ بقبلة الأُمرد ، ولمسه والنظر إليه ، هو حرام باتفاق المسلمين . كما هو كذلك في المرأة الأجنبية . كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « العِينان / تزنيان وزناهما النظر ، والأُذن تزني وزناها السمع ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١) .

١١/٥٤٤

فإذا كان المستحل لما حرم الله كافراً ، فكيف بمن يجعله قرابة وطريقاً إلى الله تعالى ؟ ! قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨] ، وسبب نزول الآية أن غير الخمس من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فجعل الله كشف عوراتهم فاحشة ، وبين أن الله لا يأمر بالفحشاء ، ولها لما حج أبو بكر الصديق قبل حجة الوداع ، نادى - بأمر النبي ﷺ ، وكان يحج المسلم والمشرک - لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان (٢) . فكيف بمن يستحل إتيان الفاحشة الكبرى ؟ أو ما دونها ؟ ويجعل ذلك عبادة وطريقاً .

وإن كان طائفة من المتفلسفة ومن وافقهم من ضلال المتنسكة جعلوا عشق الصور الجميلة من جملة الطريق التي تزكى بها النفوس، فليس هذا من دين المسلمين، ولا اليهود ولا النصارى، وإنما هو دين أهل الشرك الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله .

/ وإن كان أتباع هؤلاء زادوا على ما شرعه ساداتهم وكبرائهم ، زيادات من الفواحش التي لا ترضاهم القُرود ، فإنه قد ثبت في صحيح البخاري « أن أبا عمران رأى في الجاهلية قرداً زنا بقردة ، فاجتمعت عليه القُرود فرجمته » (٣) . ومثل ذلك قد شاهدته الناس في زماننا في غير القُرود ، حتى الطيور .

١١/٥٤٥

فلو كانت صحبة «المردان» المذكورة خالية عن الفعل المحرم، فهي مظنة لذلك ، وسبب له ، ولهذا كان المشائخ العارِفون بطريق الله يحذرون من ذلك . كما قال فتح الموصلي : أدركت ثلاثين من الأبدال كل ينهاني عند مفارقتي إياه عن صحبة الأحداث ، وقال معروف الكرخي : كانوا ينهون عن ذلك . وقال بعض التابعين : ما أنا على الشاب الناسك من سيع

(١) البخاري في الاستئذان (٦٢٤٣) .

(٢) البخاري في الحج (١٦٢٢) ومسلم في الحج (٤٣٥/١٣٤٧) .

(٣) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤٩) . عن عمرو بن ميمون .

يجلس إليه ، بأخوف منى عليه من حدث يجلس إليه . وقال سفيان الثوري ، وبشر الحافى : أن مع المرأة شيطاناً ، ومع الحدث شيطانين ، وقال بعضهم : ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه الله بصحبة هؤلاء الأحداث . وقد دخل من فتنه الصور والأصوات على النساك ما لا يعلمه إلا الله ، حتى اعترف أكابر الشيوخ بذلك . وتاب منهم من تداركه الله برحمته .

ومعلوم أن هذا من باب اتباع الهوى بغير هدى من الله . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠] . ومن استحل ذلك ، أو / اتخذه ديناً ، كان ضالاً مضاهياً للمشركين والنصارى ، ومن فعله مع اعترافه بأنه ذنب أو معصية كان عاصياً أو فاسقاً .

وكذلك مؤاخاة «المرأة الأجنبية» بحيث يخلو بها ، وينظر منها ما ليس للأجنبي أن ينظره حرام باتفاق المسلمين ، واتخاذ ذلك ديناً وطريقاً كفر وضلال . والمال الذى يؤخذ لأجل إقرارهم ، ومعونة على محادثة الرجل الأمرد ، هى من جنس جعل القوادة ، ومطالبتهم له بالصحبة من جنس العرس على البغى . والله سبحانه أباح النكاح غير مسافحين ، ولا متخذى أخذان ، فالمرأة المسافحة تزنى بمن اتفق لها . وكذلك الرجل المسافح ؛ الذى يزنى مع من اتفق له ، وأما المتخذ الخدن فهو الرجل يكون له صديقة ، والمرأة يكون لها صديق ، فالأمرد المخادن للواحد من هؤلاء من جنس المرأة المتخذة خدنًا ، وكذلك الجعل والمال الذى يؤخذ على هذا من جنس مهر البغى ، وجعل القوادة ونحو ذلك .

وأما «الماجريات» فإذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب أن يقام فى أمرهما بالقسط . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٣٥] . وقال ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٨] ، وقال : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الحجرات: ٩] ، / وقد روى : أن اقتتالهما كان بالجريد والتعال .

وقد قال تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ الآية [النساء: ١١٤] . وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] . وقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] . وقال : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ الآية [النحل: ١٢٦] .

فإن كان الشخصان قد اختصما ، نظر أمرهما ، فإن تبين ظلم أحدهما ، كان المظلوم

بالخيار بين الاستفاء والعفو ، والعفو أفضل ، فإن كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه ، أو يلطمه ، كما فعل به عند جماهير السلف ، وكثير من الأئمة ، وبذلك جاءت السنة ، وقد قيل : إنه يؤدب . ولا قصاص فى ذلك .

وإن كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه ، إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله ، أو على غير الظالم . فإذا لعنه أو سماه باسم كلب ونحوه ، فله أن يقول له مثل ذلك ، فإذا لعن أباه لم يكن له أن يلعن أباه ، لأنه لم يظلمه ، وإن افترى عليه كذباً لم يكن له أن يفترى عليه كذباً ، لأن الكذب حرام ، لحق الله ، كما قال كثير من العلماء فى القصاص فى البدن : إنه إذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل . فهذا أصح قولى العلماء ، إلا أن يكون الفعل محرماً لحق الله ، كفعل الفاحشة ، أو تجريعه الخمر ، فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم ، وإن كان بعضهم سوغه بنظير ذلك .

١١/٥٤٨

وإذا اعترف الظالم بظلمه ، وطلب من المظلوم أن يعفو عنه ، ويستغفر الله له ، فهذا حسن مشروع . كما ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء : أنه كان بين أبى بكر وعمر كلام ، وإن أباً بكر طلب من عمر أن يستغفر له فأبى عمر ، ثم ندم . فطلب أباً بكر فوجده قد سبقه إلى النبى ﷺ ، وذكر له ذلك . فقال النبى ﷺ : « يغفر الله لك يا أباً بكر » ، ثم قال : « أيها الناس ، إني قد جئت إليكم فقلت : إني رسول الله ، فقلت : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، فهل أنتم تاركوا لى صاحبي ؟ » (١) .

وإذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب ، كان من المحسنين الذين أجرهم على الله ، وإن أبى إلا طلب حقه لم يكن ظالماً . لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن ، فليس لأحد أن يخرجهم عن أهل الطريق بمجرد ذلك ، كما قد يفعله كثير من الناس . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤١ ، ٤٢] فإنه لو كان من ترك الإحسان الذى لا يجب عليه يحسب خارجاً عن الطريق خرج عنه جمهور أهله .

١١/٥٤٩

و«أولياء الله» على صنفين : مقربين سابقين ، وأصحاب يمين مقتصدين . كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة . وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٤٠) .

يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألتى لأعطينه ، ولئن استعازنى لأعيدنه ، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (١) .

ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونهم لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه ، أو قرينه ونحو ذلك .

والله سبحانه أوجب على عباده العدل فى الصلح ، كما أو جبه فى الحكم . فقال تعالى : ﴿ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩] . وقيد الإصلاح الذى يثب عليه بالإخلاص ، فقال / تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] . إذ كثير من الناس يقصدون الإصلاح ، إما لسمعة وإما لرياء .

ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف ، ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم فى العفو، ويصلحه الظالم ، وترغبه فى ذلك . فإن الله تعالى إذا ذكر فى القرآن حقوق العباد التى فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو ، كقوله سبحانه : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] .

وعن أنس قال : ما رفع إلى رسول الله ﷺ شئ فى القصاص إلا أمر فيه بالعفو» (٢) وليس من شرط طلب العفو من المظلوم أن الظالم يقوم على قدميه ، ولا يضع نعليه على رأسه ، ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس . وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق . فإذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه . ثم المستحق بالخيار إن شاء عفى ، وإن شاء استوفى .

وللمظلوم أن يهجره ثلاثاً ، وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه ، لقوله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ، ويصد هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » (٣) .

وأما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب ، والفواحش ، والبعد المخالفة للكتاب والسنة ،

(١) سبق تخريجه ص ١٦ .

(٢) أبو داود فى الديات (٤٤٩٧) ، والنسائى فى القسامة (٤٧٨٣ ، ٤٧٨٤) .

(٣) البخارى فى الادب (٦٠٧٧) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٠٦ / ٢٥) .

أو إضاعة الصلاة بالتفريط ، وواجباتها ، ونحو ذلك ، فهذا لا بد فيه من التوبة ، وهل يشترط مع التوبة إظهار الإصلاح في العمل ؟ على قولين للعلماء ، وإذا كان لهم شيخ مطاع فإن له أن يعزر العاصي بحسب ذنبه تعزيراً يليق بمثله أن يفعله بمثله ، مثل هجره مدة . كما هجر النبي ﷺ الثلاثة المخلفين .

وقد كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يسوسون الناس في دينهم ودنياهم ، ثم بعد ذلك تفرقت الأمور ، فصار أمراء الحرب يسوسون الناس في أمر الدنيا والدين الظاهر ، وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع إليهم في العلم والدين .

وهؤلاء أولو أمر تحب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التي هم أولو أمرها . وهو كذلك فسر أولى الأمر في قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ [النساء: ٥٩] بأمراء الحرب : من الملوك ونوابهم ، وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ، ويأمرونهم بطاعة الله ، فإن قوام الدين بالكتاب والحديد ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥] .

١١/٥٥٢

وإذا كان ولاية الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق ، كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيرهم وتأديبهم ما يتمكنون منه ، إذا لم يقم به غيرهم . كما قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهو أضعف الإيمان » (١) .

وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة ، كما كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ينفي من شرب الخمر . وكما نفى نصر بن حجاج إلى البصرة ، لخوف فتنة النساء به ، وقد مضت سنة رسول الله ﷺ بالنفي في الزنا ، ونفي المخنث ، وأمر بعض المشائخ للمسيء بالسفر هذا أصله . وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل طويل ببيان الذنوب ، والتوبة منها ، وشروط التوبة ، وهو حال مستصحب للعبد من أول أمره إلى آخر عمره ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ١، ٢] .

وإذا تاب العبد ، وأخرج من ماله صدقة للتطهر من ذنبه ، كان ذلك حسناً مشروعاً قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ / عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة: ١٠٤] ، وقال النبي ﷺ : « الصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار ، والحسد يأكل الحسنات

١١/٥٥٣

(١) مسلم في الإيمان (٧٨/٤٩) .

كما تأكل النار الحطب»^(١) ، وقال النبي ﷺ : « فتنه الرجل في أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »^(٢) وقال كعب بن مالك : إن من توبتي أن أنخلع من مالى صدقة . فقال النبي ﷺ : « أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك »^(٣) .

لكن لا يجوز إلزامه بصدقة ، ولا تجب عليه لا بإخراج ثيابه ، ولا غير ذلك ، ولا يجوز أن يقصد مطالبته بالتوبة أن يؤكل ماله ، لا سيما إذا أعنت فجعل له ذنب من غير ذنب ، فإن هذا يبقى كذباً وظلماً ، وأكلاً للمال بالباطل ، ولا يجب أن يكون ما يخرج منه صدقة مصروفاً في طعام يأكلونه ، بل الخيرة إليه بوضعه حيث يكون أصلح وأطوع لله ولرسوله .

والذى ينبغي أن ينظر أحق الناس بتلك الصدقة فتدفع إليه . وأما أن يجعل من جملة التوبة صنعة طعام ، ودعوة ، فهذا بدعة . فما زال الناس يتوبون على عهد النبي ﷺ وأصحابه من غير هذه البدعة .

١١/٥٥٤ / وأما الشكر الذى فيه إخراج شىء من ماله : كملبوس ، أو غيره شكراً لله على ما أنعم به ، إما من توبة ، وإما إصلاح ، ونحو ذلك ، فهو حسن مشروع ، فإن كعب بن مالك لما جاءه المبشر بتوبة الله عليه ، أعطاه ثوبه الذى كان عليه ، واستعار ثوباً ذهب فيه إلى النبي ﷺ . لكن تعيين اللباس وغيره فى الشكر بدعة أيضاً . فإن فعل ذلك أحياناً فهو حسن ، فلا يجعل واجباً أو مستحباً ، إلا ما جعله الله ورسوله واجباً أو مستحباً ، ولا ينكر إلا ما كرهه الله ورسوله . فلا دين إلا ما شرع الله ، ولا حرام إلا ما حرم الله .

وضرب الرجل تحت رجله هو من التعذير ، فإن كان له ذنب يستحق به مثل ذلك من دين الله ، والمؤدب له ممن له أهلية ذلك ، فهو حق . وأما كشف الرأس ، والانحناء فليس من السنة ، وإنما هو مأخوذ عن عادات بعض الملوك ، والجاهلية ، والمخلوق لا يسأل كشف رأس ، ولا ركوع له . وإنما يركع لله فى الصلاة ، وكشف الرأس لله فى الإحرام .

وأما «لباس الصوف» فقد لبس رسول الله ﷺ جبة الصوف فى السفر ، ولهذا قال الأوزاعى : لباس الصوف فى السفر سنة ، وفى الحضر بدعة .

١١/٥٥٥ / ومعنى هذا أن المداومة عليه فى الحضر بدعة . كما روينا عن محمد بن سيرين : أنه بلغه أن أقواماً يتحرون لباس الصوف . قال : أظن هؤلاء بلغهم أن المسيح كان يلبس الصوف ، فلبسوه لذلك ، وهدى نبينا أحب إلينا من هدى غيره . وفى السنن : أن أصحاب

(١) ابن ماجه فى الزهد (٤٢١٠) ، وضعفه الألبانى .

(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٣٥) ومسلم فى الإيمان (٢٣١/١٤٤) .

(٣) البخارى فى تفسيره (٤٦٧٦) .

رسول الله ﷺ كانوا يشهدون الجمعة، ولباسهم الصوف^(١). وفي الحديث الآخر: قدم على النبي ﷺ قوم مجتابي النمار^(٢). والنمار من الصوف، وقد لبس النبي ﷺ القطن، وغيره.

ومعنى هذا أن اتخاذ لبس الصوف عبادة وطريقاً إلى الله بدعة. وأما لبسه للحاجة والانتفاع به للفقير لعدم غيره، أو لعدم لبس غيره، ونحو ذلك فهو حسن مشروع. والامتناع من لبسه مطلقاً مذموم، لاسيما من يدع لبسه كبراً وخيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: «من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»^(٣)، وقال: «بينما رجل يجر إزاره خيلاء إذ خسفت به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٤) وقد كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب: المرتفع، والمنخفض.

وليس لأحد أن يجعل من الدين، ومن طريق الله إلا ما شرعه الله ورسوله، لاسيما إذا كان التقييد فيه فساد الدين والدنيا، فإن / لبس الصوف، وترقيع الثوب عند الحاجة حسن، من أفعال السلف. والامتناع من ذلك مطلقاً مذموم.

١١/٥٥٦

فأما من عمد إلى ثوب صحيح فمزقه ثم يرقعه بفضلات، ويلبس الصوف الرفيع الذي هو أعلى من القطن، والكتان، فهذا جمع فسادين:

أما من جهة الدين فإنه يظن التقييد بلبس المرقع والصوف من الدين، ثم يريد أن يظهر صورة ذلك دون حقيقته، فيكون ما ينفقه على ذلك أعظم مما ينفق على القطن الصحيح، وهذا مخالف للزهد.

وفساد المال بإتلافه وإنفاقه فيما لا ينفع لا في الدين، ولا في الدنيا.

(١) أبو داود في الطهارة (٣٥٣)، وأحمد ٢٦٨/١، كلاهما عن ابن عباس .

(٢) مسلم في الزكاة (١٧ / ٧٠)، وأحمد ٣٥٨/٤، ٣٦١.

(٣) البخاري في اللباس (٥٧٨٣) ومسلم في اللباس (٢٠٨٥ / ٤٢ - ٤٤) .

(٤) البخاري في اللباس (٥٧٨٩) ومسلم في اللباس (٢٠٨٨ / ٤٩ ، ٥٠) .

/ ما تقول السادة الأعلام ، أئمة الإسلام ، ورثة الأنبياء عليهم السلام - رضي الله عنهم ، وأرضاهم - في صفة «سماع الصالحين» ما هو ؟ وهل سماع القصائد الملحنة بالآلات المطربة هو من القرب والطاعات . أم لا ؟ وهل هو مباح ، أم لا ؟

فأجاب شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية - رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

أصل هذه «المسألة» أن يفرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين، وبين ما يرخص فيه رفعاً للحرج، بين سماع المتقربين، وبين سماع المتلعبين .

فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم، وزكاة / نفوسهم - فهو سماع آيات الله تعالى . ١١/٥٥٨ وهو سماع النبيين والمؤمنين، وأهل العلم، وأهل المعرفة .

قال الله تعالى ، لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] ، وقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] . وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩] . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] .

وبهذا السماع أمر الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ، وعلى أهله أثنى كما في قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ (١) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] . وقال في الآية الأخرى : ﴿أَقْلَمُ يَدَبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، فالقول الذي أمروا بتدبره

(١) في المطبوعة : «عبادي» وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

هو القول الذي أمروا باستماعه. وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وكما أثنى على هذا السماع، ذم المعرضين عن هذا السماع، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ. كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَفْرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر، والعشائين، وغير ذلك.

وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقيون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى: / يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. وهذا هو السماع الذي كان النبي ﷺ يشهده مع أصحابه، ويستدعيه منهم، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «اقرأ علي القرآن»، قلت: أقرأه عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك»، فنظرت فإذا عيناه تذرفان^(١). وهذا هو الذي كان النبي ﷺ يسمعه هو وأصحابه. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، و«الحكمة» هي السنة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ (٢) أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]. وكذلك غيره من الرسل، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقْصُودُ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

(١) سبق تخريجه ص ١٦٤.

(٢) في المطبوعة: «قل إنما أُمِرْتُ»، والصواب ما أثبتناه.

وبذلك يحتج عليهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح، والمعرض عنه ضال شقي. قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

و «ذكر الله» يراد به تارة: ذكر العبد ربه، ويراد به الذكر الذي أنزله الله. كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقال نوح: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ / مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧، ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وهذا «السماع» له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية، يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودية من خشوع القلب، ودموع العين، واقتشعار الجلد، وهذا مذكور في القرآن. وهذه الصفات موجودة في الصحابة، ووجدت بعدهم آثار ثلاثة: الاضطراب، والصراخ، والإغماء. والموت في التابعين.

وبالجملة، فهذا السماع هو أصل الإيمان؛ فإن الله بعث محمداً ﷺ إلى الخلق أجمعين ليلفهم رسالات ربه، فمن سمع ما بلغه الرسول فأمن به واتبعه اهتدى وأفلح، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى.

وأما «سماع المكاء والتصديق» وهو التصفيق بالأيدي، و المكاء مثل الصفير ونحوه، فهذا هو سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا

مُكَاءً وَتَصَدِيقَةً ﴿ [الأَنْفَال: ٣٥] ، فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد، والتصويت بالفم قرابة ودينًا. ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع، ولا حضروه قط، ومن قال: إن النبي ﷺ حضر ذلك فقد كذب / عليه، باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنته. والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي^(١) في «مسألة السماع» و «في صفة التصوف» ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي^(٢) صاحب عوارف المعارف أن النبي ﷺ أنشده أعرابي :

قد لسعت حية الهوي كبدي فلا طيب لها ولا راقبي
إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقتي وترياقي

وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، فقال له معاوية : ما أحسن لهوكم! فقال له : «مهلاً يا معاوية، ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب»^(٣) فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن.

وأظهر منه كذباً حديث آخر يذكرون فيه : أنه لما بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا ، وخرقوا ثيابهم، وأن جبرائيل نزل من السماء فقال : يا محمد، إن ربك يطلب نصيبه من هذه الخرق، فأخذ منها خرقه فعلقها بالعرش، وإن ذلك هو زيق الفقراء. وهذا وأمثاله إنما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي ﷺ ، وأصحابه ومن بعدهم، ومعرفة الإسلام والإيمان.

/ وهو يشبه رواية من روى : أن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين، أو غير يوم حنين، وأنهم قالوا: نحن مع الله، من كان الله معه كنا معه ، ومن روى : أن صبيحة المعراج وجد أهل الصفة يتحدثون بسر كان الله أمر نبيه أن يكتبه، فقال

(١) هو أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد الإمام الحافظ الجوال الرحال، ذو التصانيف، ولد ببيت المقدس في شوال سنة ثمان وأربعمائة، وسمع بالقدس ومصر، والحرمين والشام، والجزيرة والعراق وأصبهان والجبال، وفارس وخراسان. مات عند قدومه من الحج في يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة. [سير أعلام النبلاء ١٩/٣٦١ - ٣٧١].

(٢) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عموي، واسمه عبد الله البكري، ينتهي نسه إلى أبي بكر الصديق، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة، وكان شيخ شيوخ بغداد وكان له مجلس وعظ سنين، كان فقيهاً شافعيًا، صالحاً ورعاً، تخرج عليه خلق كثير، ولد بسهرورد في أواخر رجب، أو أوائل شعبان، والشك منه في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وتوفي في مستهل المحرم سنة اثنتين وثلاثين وستمئة ببغداد. [وفيات الأعيان ٣/٤٤٦-٤٤٨].

(٣) السلسلة الضعيفة والموضوعة للألباني (٥٥٨) وقال: موضوع.

لهم : « من أين لكم هذا ؟ » قالوا : الله علمنا إياه ، فقال : « يا رب ، ألم تأمرني ألا أفشيهِ ؟ » فقال : أمرتك أنت ألا تفشيهِ ، ولكني أنا أخبرتهم به ، ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين ، مع فرط جهلهم بدين الإسلام ، فينون عليها من التفاف والبدع ما يناسبها . تارة يسقطون التوسط بالرسول وأنهم يصلون إلى الله تعالى من غير طريق الرسل مطلقاً . فهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى ؛ فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد ، ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقاً .

وهؤلاء إذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقاً عن أنفسهم ، كان هذا أغلظ من كفر أولئك ، لكنهم يقولون : لا تسقط الوساطة إلا عن الخاصة ، لا عن العامة ، فيكونون أكفر من أهل الكتاب من جهة إسقاط السفارة مطلقاً عنهم ، في بعض الأحوال ، وأهل الكتاب أكفر من جهة إسقاط سفارة محمد مطلقاً ، بل أهل الكتاب الذين يقولون : إنه رسول إلى الأُميين دون أهل الكتاب خير من هؤلاء . فإن أولئك أخرجوا عن رسالته من له كتاب ، وهؤلاء يخرجون عن رسالته من لا يبقى معه إلا خيالات / ووساوس وظنون ألقتها إليه الشيطان ، مع ظنه أنه من خواص أولياء الله ، وهو من أشد أعداء الله ، وتارة يجعلون هذه الآثار المختلفة حجة فيما يفترونه من أمور تخالف دين الإسلام ، ويدعون أنها من أسرار الخواص ، كما يفعل الملاحدة والقرامطة والباطنية ، وتارة يجعلونها حجة في الإعراض عن كتاب الله وسنة نبيه إلى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهواً ولعباً .

وبالجملة ، قد عرف بالاضطرار من دين الإسلام : أن النبي ﷺ لم يشرع لصاحبي أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الآيات الملحنة ، مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب ، أو الدف . كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعتة ، واتباع ماجاء به من الكتاب والحكمة ، لا في باطن الأمر ، ولا في ظاهره ، ولا لعامي ولا لخاصي ، ولكن رخص النبي ﷺ في أنواع من اللهو في العرس ونحوه ، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح ، وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ، ولا يصفق بكف ، بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « التصفيق للنساء والتسبيح للرجال »^(١) ، و« لعن المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء »^(٢) .

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء ، كان السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال مخنثاً ، ويسمون الرجال / المغنيين مخانثاً ، وهذا مشهور في كلامهم .
ومن هذا الباب حديث عائشة - رضي الله عنها - لما دخل عليها أبوها رضي الله عنه

(١) البخارى فى العمل فى الصلاة (١٢٠٣) ومسلم فى الصلاة (٤٢٢ / ١٠٦) .

(٢) البخارى فى اللباس (٥٨٨٥) .

في أيام العيد، وعندها جارتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث، فقال أبو بكر - رضي الله عنه : أہمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وكان رسول الله ﷺ معرضاً بوجهه عنهما، مقبلاً بوجهه الكريم إلى الحائط . فقال : «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا أهل الإسلام»^(١)، ففي هذا الحديث بيان: أن هذا لم يكن من عادة النبي ﷺ وأصحابه الاجتماع عليه، ولهذا سماه الصديق زمزم الشيطان، والنبي ﷺ أقر الجواري عليه معللاً ذلك بأنه يوم عيد، والصغار يرخص لهم في اللعب في الأعياد، كما جاء في الحديث : «ليعلم المشركون أن في ديننا فسحة»^(٢) وكان لعائشة لعب تلعب بهن ويجتن صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها، وليس في حديث الجاريتين أن النبي ﷺ استمع إلى ذلك، والأمر والنهي إنما يتعلق بالاستماع، لا بمجرد السماع . كما في الرؤية فإنه إنما يتعلق بقصد الرؤية، لا بما يحصل منها بغير الاختيار .

وكذلك في اشتمام الطيب إنما ينهى المحرم عن قصد الشم، فأما إذا شم ما لم يقصده فإنه لا شيء عليه . وكذلك في مباشرة المحرمات كالحواس / الخمس : من السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس ، إنما يتعلق الأمر والنهي من ذلك بما للبعد فيه قصد وعمل، وأما ما يحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهى .

١١/٥٦٧

وهذا مما وجه به الحديث الذي في السنن عن ابن عمر: أنه كان مع النبي ﷺ فسمع صوت زمارة راع ، فعدل عن الطريق ، وقال : « هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ » حتى انقطع الصوت^(٣) .

فإن من الناس من يقول: بتقدير صحة هذا الحديث، لم يأمر ابن عمر بسد أذنيه، فيجيب بأنه كان صغيراً، أو يجاب بأنه لم يكن يستمع، وإنما كان يسمع، وهذا لا إثم فيه . وإنما النبي ﷺ فعل ذلك طلباً للأفضل والأكمل، كمن اجتاز بطريق فسمع قوماً يتكلمون بكلام محرم فسد أذنيه كي لا يسمعه، فهذا حسن، ولو لم يسد أذنيه لم يَأْثَم بذلك . اللهم إلا أن يكون في سماعه ضرر ديني لا يندفع إلا بالسد .

و بالجملة : فهذه مسألة السماع تكلم كثير من المتأخرين في السماع : هل هو محظور؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج ، بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقاً إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصالح القلوب ، والتشويق إلى المحبوب ، / والتخويف من المرهوب ، والتحزين على فوات المطلوب ، فتستزل به الرحمة ،

١١/٥٦٨

(١) مسلم في صلاة العيدين (١٦/٨٩٢، ١٧) ، وابن ماجه في النكاح (١٨٩٨) .

(٢) أحمد ١١٦/٦ ، ٢٣٣ ، عن عائشة ، وصحح إسناده أحمد شاكر .

(٣) أبو داود في الأدب (٤٩٢٤-٤٩٢٦) .

وتستجلب به النعمة، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، وتستجلي به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه، حتى يجعلونه قوتًا للقلوب، وغذاءً للأرواح، وحاديًا للنفوس، يحدوها إلى السير إلى الله، ويحثها على الإقبال عليه.

ولهذا يوجد من اعتاده، واغتنى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصديّة خشعت الأصوات، وسكنت الحركات، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب.

فمن تكلم في هذا: هل هو مكروه، أو مباح؟ وشبهه بما كان النساء يغنين به في الأعياد والأفراح، لم يكن قد اهتدى إلى الفرق بين طريق أهل الخسارة، والفلاح، ومن تكلم في هذا: هل هو من الدين؟ ومن سماع المتقين؟ ومن أحوال المقربين؟ والمقتصدين؟ ومن أعمال أهل اليقين؟ ومن طريق المحبين المحبوبين؟ ومن أفعال السالكين، إلى رب العالمين؟ كان كلامه فيه من وراء وراء بمنزلة من سئل عن علم الكلام المختلف فيه: هل هو محمود؟ أو مذموم؟ فأخذ / يتكلم في جنس الكلام وانقسامه: إلى الاسم، والفعل، والحرف، أو يتكلم في مدح الصمت، أو في أن الله أباح الكلام والنطق، وأمثال ذلك مما لا يمس المحل المشتبه المتنازع فيه.

فإذا عرف هذا، فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن، ولا مصر، ولا المغرب، ولا العراق، ولا خراسان، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصديّة، لا بدف، ولا بكف، ولا بقضيب، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية، فلما رآه الأئمة أنكروه.

فقال: الشافعي - رضي الله عنه -: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه «التغيير» يصدون به الناس عن القرآن، وقال يزيد بن هارون: ما يغبر إلا الفاسق، ومتى كان التغيير؟!

وسئل عنه الإمام أحمد، فقال: أكرهه، هو محدث. قيل: أنجلس معهم؟ قال: لا، وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد بن أبي الحواري، والسري السقطي، وأمثالهم. والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم. وأعيان المشائخ عابوا أهلهم، كما فعل ذلك

عبد القادر ، والشيخ أبو البيان، وغيرهما من المشائخ.

وما ذكره الشافعي - رضي الله عنه - من أنه من إحداه الزنادقة كلام إمام خبير بأصول الإسلام، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة: كابن الراوندي، والفارابي، وابن سينا، وأمثالهم: كما ذكر أبو عبد الرحمن السلمي - في مسألة السماع - عن ابن الراوندي^(١)، قال: إنه اختلف الفقهاء في السماع: فأباحه قوم، وكرهه قوم. وأنا أوجبه - أو قال - وأنا آمر به. فخالف إجماع العلماء في الأمر به. و«الفارابي» كان بارعاً في الغناء الذي يسمونه «الموسيقا» وله فيه طريقة عند أهل صناعة الغناء، وحكايته مع ابن حمدان مشهورة، لما ضرب فأبكاهم، ثم أضحكهم، ثم نومهم ثم خرج.

و«ابن سينا» ذكر في إشاراته، في «مقامات العارفين» في الترغيب فيه، وفي عشق الصور، ما يناسب طريقة أسلافه الفلاسفة، والصابئين المشركين، الذين كانوا يعبدون الكواكب، والأصنام، كأرسطو وشيعته من اليونان - ومن اتبعه كبرقلس، وثامسطيوس، والإسكندر الأفروديسي، وكان أرسطو وزير الإسكندر بن فيليب المقدوني، / والذي تؤرخ له اليهود والنصارى، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة.

١١/٥٧١

وأما «ذو القرنين» المذكور في القرآن الذي بنى «السد» فكان قبل هؤلاء بزمان طويل، وأما الإسكندر الذي وزر له أرسطو: فإنه إنما بلغ بلاد خراسان ونحوها في دولة الفرس، لم يصل إلى السد وهذه الأمور مبسوبة في غير هذا الموضع.

و«ابن سينا» أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليونان، وما أخذ من أهل الكلام المبتدعين الجهمية، ونحوهم. وسلك طريق الملاحدة الإسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية، ومزجه بشيء من كلام الصوفية، وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيلية القرامطة الباطنية " فإن أهل بيته كانوا من الإسماعيلية: أتباع الحاكم الذي كان بمصر وكانوا في زمنه، ودينهم دين أصحاب «رسائل إخوان الصفا»، وأمثالهم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين، ولا يهود ولا نصارى.

وكان الفارابي قد حذق في حروف اليونان التي هي تعاليم أرسطو، وأتباعه من

(١) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق، أبو الحسين الراوندي أو ابن الراوندي فيلسوف معاصر للإمام، من سكان بغداد، قال ابن كثير: أخذ مشاهير الزنادقة، طلبه السلطان فهرب، ومن فرق المعتزلة (الراوندية) نسبة إليه. مات برجة مالك بن طوق، (بين الرقة وبغداد)، وقيل: صلبه أحد السلاطين ببغداد. [وفيات الأعيان ٩٤/١ (٣٥)، والأعلام ٢٦٧/١، ٢٦٨].

الفلاسفة المشائين، وفي أصواتهم صناعة الغناء، ففي هؤلاء الطوائف من يرغب فيه ويجعله مما تزكو به النفوس، وترتاض به، وتهذب به الأخلاق.

١١/٥٧٢ / وأما «الحنفاء» أهل ملة إبراهيم الخليل، الذي جعله الله إماما، وأهل دين الإسلام، الذي لا يقبل الله من أحد دينًا غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ فهو هؤلاء ليس فيهم من يرغب في ذلك، ولا يدعو إليه، وهؤلاء هم أهل القرآن، والإيمان، والهدى، والسعد، والرشاد، والنور، والفلاح، وأهل المعرفة والعلم، واليقين والإخلاص، والمحبة له، والتوكل عليه، والخشية له، والإنابة إليه.

ولكن قد حضره أقوام من أهل الإرادة، ومن له نصيب من المحبة، لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته ولا عرفوا مغبته، كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام، ظنًا منهم أنه حق موافق ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، فإن القيام بحقائق الدين علمًا وحالًا وقولًا وعملاً ومعرفة وذوقًا وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس. ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة، فإن الله بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا.

١١/٥٧٣ وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي / مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. قال عبد الله بن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وخط خطوطًا، عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله. وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فقد رضي الله عن السابقين رضي مطلقًا، ورضى عن اتبعهم بإحسان. قال عبد الله بن مسعود: إن الله نظر في قلب محمد فوجد قلبه خير قلوب العباد، فاصطفاه لرسالته. ثم نظر في قلوب الناس بعد قلبه فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه قبيحًا فهو عند الله قبيح. وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستيًا فليستن بمن قد

(١) أحمد ٤٣٥/١ وابن ماجه في المقدمة (١١) والدارمي في المقدمة ١ / ٦٧ ، ٦٨ .

مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ ، أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ومعارفها ، وأذواقها ، ومواجيدها . عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب / للقلوب منفعة ، ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه ، فهو للروح كالخمر للجسد ، يفعل في النفوس فعل حميا الكؤوس .

١١/٥٧٤

ولهذا يورث أصحابه سكرًا أعظم من سكر الخمر ، فيجدون لذة بلا تمييز . كما يجد شارب الخمر ، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر ، ويصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة ، أعظم مما يصدهم الخمر ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، أعظم من الخمر ، حتى يقتل بعضهم بعضًا من غير مس بيد ، بل بما يقترن بهم من الشياطين ، فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية ، بحيث تنزل عليهم الشياطين في تلك الحال . ويتكلمون على ألسنتهم ، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع : إما بكلام من جنس كلام الأعاجم ، الذين لا يفقه كلامهم ، كلسان الترك ، أو الفرس ، أو غيرهم ، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عربيًا لا يحسن أن يتكلم بذلك ، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم . وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى . وهذا يعرفه أهل المكاشفة شهودًا وعيانًا .

وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة ، هم من هذا النمط . فإن الشياطين تلبس أحدهم ، بحيث يسقط إحساس بدنه ، حتى إن المصروع يضرب ضربًا عظيمًا ، وهو لا يحس بذلك ، ولا / يؤثر في جلده ، فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين ، وتدخل بهم النار وقد تطير بهم في الهواء ، وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغييب عقله ، كما يلبس الشيطان المصروع .

١١/٥٧٥

وبأرض الهند ، والمغرب ، ضرب من الزط يقال لأحدهم : المصلي ، فإنه يصلي النار كما يصلي هؤلاء ، وتلبسه ويدخلها ويطير في الهواء ، ويقف على رأس الزج ، ويفعل أشياء أبلغ مما يفعله هؤلاء ، وهم من الزط الذين لا خلاق لهم ، والجن تخطف كثيرًا من الإنس وتغيبه عن أبصار الناس ، وتطير بهم في الهواء ، وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه ، وكذلك يفعل هذا هؤلاء المتولهون والمتسبون إلى بعض المشائخ إذا حصل له وجد سماعي ، وعند سماع المكاء والتصدية ، منهم من يصعد في الهواء ، ويقف على زج الرمح ، ويدخل النار ، ويأخذ الحديد المحمي بالنار ثم يضعه على بدنه ، وأنواع من هذا

الجنس، ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة، ولا عند الذكر، ولا عند قراءة القرآن؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية، تطرد الشياطين، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين.

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا / غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١) وقد ثبت في الحديث الصحيح: أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف، نزلت الملائكة لسماعها، كالظلة فيها السرج^(٢).

ولهذا كان المكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم، ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر، والسلف يسمونه تغييراً؛ لأن التغيير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود، وهو ما يغبر صوت الإنسان على التلحين، فقد يضم إلى صوت الإنسان، إما التصفيق بأحد اليدين على الأخرى، وإما الضرب بقضيب على فخذ وجلد، وإما الضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف أو طبل، كناقوس النصرى، والنفخ في صفارة؛ كبوق اليهود. فمن فعل هذه الملاحى على وجه الديانة والتقرب فلا ريب في ضلالتة وجهالته.

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتلعب فمذهب الأئمة الأربعة: أن آلات اللهو كلها حرام، فقد ثبت في صحيح البخارى وغيره: أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحر والحرير، والخمر والمعازف، وذكر أنهم يمسحون قردة وخنازير^(٣).

و«المعازف» هي الملاحى كما ذكر ذلك أهل اللغة، جمع معزفة وهي الآلة التي يعزف بها: أي يصوت بها. ولم يذكر أحد من / أتباع الأئمة في آلات اللهو نزاعاً، إلا أن بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي ذكر في اليراع وجهين، بخلاف الأوتار ونحوها، فإنهم لم يذكروا فيها نزاعاً، وأما العراقيون الذين هم أعلم بمذهبه وأتبع له، فلم يذكروا نزاعاً لا في هذا، ولا في هذا، بل صنف أفضلهم في وقته أبو الطيب الطبري^(٤) شيخ أبي

(١) سبق تخريجه ص ١٠٢ .

(٢) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٦ / ٢٤٢) .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٩١ .

(٤) هو طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري الشافعي الإمام العلامة، شيخ الإسلام، القاضي أبو الطيب، فقيه بغداد. ولد سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة بأمل. سمع من مفسقه أبي الحسن الماسرجسي، ويغداد من الدارقطني، وغيرهم، استوطن بغداد، ودرس وأفتى وأفاد، وولى قضاء رُبُع الكرخ. قال الخطيب: كان شيخنا أبو الطيب ورعاً عاقلاً، عارفاً بالأصول والفروع، محققاً، حسن الخلق، صحيح المذهب، صحيح العقل، ثابت الفهم، توفي في ربيع الأول سنة خمسين وأربعمئة، وله مائة وستان رحمه الله. [سير أعلام النبلاء: ١٧ / ٦٦٨ - ٦٧١].

إسحق الشيرازي في ذلك مصنفًا معروفًا، ولكن تكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو: هل هو حرام؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ وذكر أصحاب أحمد لهم في ذلك ثلاثة أقوال، وذكروا عن الشافعي قولين، ولم يذكروا عن أبي حنيفة ومالك في ذلك نزاعاً.

وذكر زكريا بن يحيى الساجي - وهو أحد الأئمة المتقدمين المائلين إلى مذهب الشافعي أنه لم يخالف في ذلك من الفقهاء المتقدمين إلا إبراهيم بن سعد من أهل البصرة، وما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي وأبو القاسم القشيري^(١)، وغيرهما، عن مالك، وأهل المدينة، في ذلك فغلط، وإنما وقعت الشبهة فيه، لأن بعض أهل المدينة كان يحضر السماع، إلا أن هذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم، بل قال إسحاق بن عيسى الطباع^(٢): سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق، وهذا معروف في كتاب أصحاب مالك، وهم أعلم بمذهبه، ومذهب أهل المدينة من طائفة في / المشرق لا علم لها بمذهب الفقهاء، ومن ذكر عن مالك أنه ضرب بعود فقد افتري عليه، وإنما نبهت على هذا، لأن فيما جمعه أبو عبد الرحمن السلمي، ومحمد بن طاهر المقدسي، في ذلك حكايات وآثار، يظن من لا خبرة له بالعلم وأحوال السلف أنها صدق.

١١/٥٧٨

وكان « الشيخ أبو عبد الرحمن » - رحمه الله - فيه من الخير والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصوده كل ما يجده، فلهذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة، والكلام المنقول، ما ينتفع به في الدين، ويوجد فيها من الآثار السقيمة، والكلام المردود، ما يضر من لا خبرة له. وبعض الناس توقف في روايته. حتى إن البيهقي كان إذا روى عنه يقول: حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه، وأكثر الحكايات التي يرويها أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة عنه، فإنه كان أجمع شيوخه لكلام الصوفية.

و «محمد بن طاهر» له فضيلة جيدة من معرفة الحديث ورجاله، وهو من حفاظ وقته، لكن كثير من المتأخرين: أهل الحديث، وأهل الزهد، وأهل الفقه، وغيرهم، إذا صنفوا في باب ذكر ما روى فيه من غث وسمين، ولم يميزوا ذلك، كما يوجد ممن يصنف في الأبواب مثل المصنفين في فضائل الشهور، والأوقات، وفضائل الأعمال / والعبادات،

١١/٥٧٩

(١) في المطبوعة: « الشقيري »، والصواب ما أثبتناه من سير أعلام النبلاء ٢٢٧/١٨.

(٢) هو إسحاق بن عيسى بن نجيح البغدادي أبو يعقوب بن الطباع، روى عن مالك والحمادين وشريك وابن لهيعة وغيرهم، وعنه: أحمد وأبو خيثمة والدارمي وغيرهم، قال البخاري: مشهور الحديث، وقال صالح ابن محمد: لأبأس به صدوق، وقال أبو حاتم: أخوه محمد أحب إلي منه وهو صدوق، ولد سنة ١٤٠ وتوفي سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦. [التهذيب ١/٢٤٥].

وفضائل الأشخاص، وغير ذلك من الأبواب، مثل ما صنف بعضهم في فضائل رجب، وغيرهم في فضائل صلوات الأيام والليالي، وصلاة يوم الأحد، وصلاة يوم الإثنين، وصلاة يوم الثلاثاء، وصلاة أول جمعة في رجب. وألفية رجب، وأول رجب، وألفية نصف شعبان، وإحياء ليلتي العيدين، وصلاة يوم عاشوراء.

وأجود ما يروى من هذه الصلوات حديث صلاة التسبيح، وقد رواه أبو داود، والترمذي^(١). ومع هذا فلم يقل به أحد من الأئمة الأربعة، بل أحمد ضعف الحديث، ولم يستحب هذه الصلوات. وأما ابن المبارك فالمنقول عنه ليس مثل الصلاة المرفوعة إلى النبي ﷺ. فإن الصلاة المرفوعة إلى النبي ﷺ ليس فيها قعدة طويلة بعد السجدة الثانية. وهذا يخالف الأصول فلا يجوز أن تثبت بمثل هذا الحديث.

ومن تدبر الأصول علم أنه موضوع. وأمثال ذلك، فإنها كلها أحاديث موضوعة، مكذوبة، باتفاق أهل المعرفة، مع أنها توجد في مثل كتاب أبي طالب، وكتاب أبي حامد، وكتاب الشيخ عبد القادر، وتوجد في مثل أمالي أبي القاسم بن عساكر. وفيما صنفه عبد العزيز الكنانى، وأبو علي بن البنا، وأبو الفضل بن ناصر، وغيرهم. وكذلك / أبو الفرج ابن الجوزي: يذكر مثل هذا في فضائل الشهور، ويذكر في الموضوعات أنه كذب موضوع.

والذين جمعوا الأحاديث في «الزهد والرقائق» يذكرون ما روى في هذا الباب، ومن أجل ما صنف في ذلك. وأندره «كتاب الزهد» لعبد الله بن المبارك. وفيه أحاديث واهية، وكذلك «كتاب الزهد» لهناد بن السري، ولأسد بن موسى، وغيرهما، وأجود ما صنف في ذلك: «الزهد» للإمام أحمد، لكنه مكتوب على الأسماء، وزهد ابن المبارك على الأبواب. وهذه الكتب يذكر فيها زهد الأنبياء، والصحابة، والتابعين.

ثم إن المتأخرين على صنفين: منهم من ذكر زهد المتقدمين، والمتأخرين، كأبي نعيم في الحلية، وأبي الفرج ابن الجوزي في «صفة الصفوة».

ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين، من حين حدث اسم الصوفية، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» وصاحبه أبو القاسم القشيري في الرسالة، ثم الحكايات التي يذكرها هؤلاء بمجردا، مثل ابن خميس، وأمثاله، فيذكرون حكايات مرسلة، بعضها صحيح، وبعضها باطل.

(١) أبو داود في الصلاة (١٢٩٧)، والترمذي في أبواب الصلاة (٤٨١، ٤٨٢) وقال: «حديث غريب من حديث أبي رافع».

/ مثل ذكرهم : أن الحسن صاحب عليا . وقد اتفق أهل المعرفة على أن الحسن البصري لم يلق عليا ، ولا أخذ عنه شيئا ، وإنما أخذ عن أصحابه : كالأحنف بن قيس ، وقيس ابن معاذ ، وغيرهما . وكذلك حكاياتهم : أن الشافعي وأحمد اجتماعا لشييان الرعين ، وسألاه عن سجود السهو ، وكذلك اتفق أهل المعرفة على أن الشافعي وأحمد لم يلقيا شييان الرعين ، بل ولا أدركاه .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن في « حقائق التفسير » عن جعفر بن محمد ، وأمثاله من الأقوال المأثورة ما يعلم أهل المعرفة أنه كذب على جعفر بن محمد ، فإن جعفر كذب عليه ما لم يكذب على أحد ؛ لأنه كان فيه من العلم والدين ، ما ميزه الله به ، وكان هو وأبوه - أبو جعفر - وجده - علي بن الحسين - من أعيان الأئمة علما ودينا ، ولم يجئ بعد جعفر مثله في أهل البيت . فصار كثير من أهل الزندقة والبدع ينسب مقالته إليه حتى أصحاب « رسائل إخوان الصفا » ينسبونها إليه ، وهذه الرسائل صنف بعد موته بأكثر من مائتي سنة ، صنف عند ظهور مذهب الإسماعيلية العبيديين ، الذين بنوا القاهرة ، وصنف على مذهبهم الذي ركبه من قول الفلاسفة اليونان ، ومجوس الفرس ، والشيعية من أهل القبلة ، ولهذا قال العلماء : إن ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض .

/ ونسبوا إلى جعفر أنه تكلم في تقدم المعرفة عن حوادث الكون : مثل اختلاج الأعضاء ، والرعود ، والبروق ، والهفت ، وغير ذلك مما نزه الله جعفرا وأئمة أهل بيته عن الكلام فيه . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

و المقصود هنا أن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ، ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه ، كما ينبغي مثل ذلك في المعقولات ، والنظريات ، وكذلك في الأدواق ، والمواجيد ، والمكاشفات ، والمخاطبات ، فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة ، فيها حق وباطل ، ولا بد من التمييز في هذا وهذا .

وجماع ذلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، وما كان عليه أصحابه فهو حق ، وما خالف ذلك فهو باطل . فإن الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١). والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع.

وقد تكلمنا على كلام المشائخ في السماع، وما ذكره القشيري في رسالته هو وغيره عنهم، وشرحنا ذلك كلمة كلمة، لكن هذا الموضع لا يتسع لذلك.

وجماع الأمر في ذلك أنه إذا كان الكلام في السماع وغيره، هل هو طاعة وقربة؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك، وإذا كان الكلام: هل هو محرم؟ أو غير محرم؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك. إذ ليس الحرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، والله سبحانه وتعالى ذم المشركين على أنهم ابتدعوا ديناً لم يشرعه الله لهم، وأنهم حرموا ما لم يحرمه الله تعالى. فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩].

وكثير من الناس يفعل في السماع وغيره، ما هو من جنس الفواحش المحرمة، وما يدعوا إليها، وزعمهم أن ذلك يصلح القلوب. فهو مما أمر الله به، فهو لاهم نصيب من معنى هذه الآية، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

وقد كان المشركون يحرمون من الطعام واللباس أشياء، ويتخذون ذلك ديناً، وكان بعض الصحابة قد عزموا على الترهيب، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ الآية [المائدة: ٨٧، ٨٨].

/وجماع الدين ألا نعبد إلا الله، ولا نعبد إلا بما شرع، ولا نعبد بالبدع، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: أخلصه،

(١) سبق تخريجه ص ١٤٢.

وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟

قال : إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشايخ، كما قال أبو سليمان الداراني: إنه لتمر بقلبي النكته من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين: الكتاب ، والسنة، وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله، حتى يسمع فيه بأثر ، فإذا سمع بأثر كان نوراً على نور.

وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث، لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا، وقال سهل بن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، وقال: كل عمل على ابتداع فإنه عذاب على النفس، وكل عمل بلا اقتداء فهو غش النفس.

/ وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] . ومثل هذا كثير في كلامهم.

وإذا كان كذلك فليس لأحد أن يسلك إلى الله إلا بما شرعه الرسول لأمته، فهو الداعي إلى الله بإذنه ، الهادي إلى صراطه، الذي من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، فهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغى . آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وصحبه وسلم.

١١/٥٨٦

سئل شيخ الإسلام - رحمه الله - عن « السماع »

فأجاب :

« السماع » الذي أمر الله به ورسوله ، واتفق عليه سلف الأمة ومشايخ الطريق : هو سماع القرآن ، فإنه سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الاسراء: ١٠٧-١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ / قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: ١٨] ، وهذا كثير في القرآن .

وكما أثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع ، فقد ذم المعرضين عنه ، كما قال : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) [فصلت: ٢٦] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ

(١) في المطبوعة " وقالوا لا تسمعوا " والصواب ما أثبتناه .

عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ. كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿[المدثر: ٤٩، ٥٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧] ، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمِعَهُمْ وَلَوْ أَسْمِعَهُمْ لَتَفَتَنُوا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْفًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧] .

وهذا كثير في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ ، وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع ويحبه ويرغب فيه ، ويذمون من يعرض عنه ويغضه ، ولهذا شرع الله للمسلمين في صلاتهم ولطمتهم (١)، شرع سماع المغرب، والعشاء الآخر. وأعظم سماع في الصلوات سماع الفجر الذي قال الله فيه: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] ، وقال عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - يمدح النبي ﷺ :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهو مستحب لهم خارج الصلوات، وروى عن النبي ﷺ : أنه خرج على أهل الصفة وفيهم واحد يقرأ وهم / يستمعون، فجلس معهم، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والباقيون يستمعون.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون، ومرو النبي ﷺ بأبي موسى وهو يقرأ : فجعل يستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير داود» (٢) ، وقال: «يا أبا موسى، لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك» فقال: لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبته لك تحبيراً (٣) . أي: حسنته لك تحسيناً .

وقال النبي ﷺ : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٤) ، «زينوا القرآن بأصواتكم» (٥) وقال: «لله أشد أذناً للرجل حسن الصوت، من صاحب القينة إلى قينته» (٦) وقوله: «ما أذن الله أذناً» (٧) أي سمع سمعاً، ومنه قوله: «وَأَذَنْتُ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ» [الانشقاق: ٢] أي سمعت، والآثار في هذا كثيرة.

(١) هكذا ، ولعلها : وسمعتهم .

(٢) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٣/٢٣٥ ، ٢٣٦) .

(٣) سبق تخريجه ص ١٦٤ . (٤) البخارى فى التوحيد (٧٥٢٧) .

(٥) ، (٦) سبق تخريجهما ص ١٦٤ .

(٧) البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٣ ، ٥٠٢٤) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٢/٢٣٢ - ٢٣٤) .

وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية ، والأحوال الزكية يطول شرحها ، ووصفها . وله في الجسد آثار محمودة . من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقتشعار الجلد ، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن . وكانت موجودة في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أثنى عليهم في القرآن ، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة : الاضطراب ، والاختلاج ، والإغماء أو الموت ، والهيام ؛ فأنكر بعض السلف ذلك إما لبدعتهم ، وإما لحبهم .

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك، فإن السبب إذا لم يكن محظوراً كان صاحبه فيما تولد عنه معذوراً. لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم، وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين ، كما ذم الله الذين قال فيهم : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] ، ولو أثر فيهم آثارا محمودة لم يجذبهم عن حد العقل. لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضاً ومعذورين .

فأما سماع القاصدين لصلاح القلوب في الاجتماع على ذلك: إما نشيد مجرد، نظير الغبار، وإما بالتصفيق، ونحو ذلك. فهو السماع المحدث في الإسلام، فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبي ﷺ حيث قال: « خير القرون: القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١) وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ.

/ وقال الشافعي - رحمه الله - : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

وسئل عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال: هو محدث أكرهه، قيل له: إنه يرق عليه القلب، فقال: لا تجلسوا معهم. قيل له: أيهجرون؟ فقال: لا يبلغ بهم هذا كله، فبين أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة، لا في الحجاز، ولا في الشام، ولا في اليمن، ولا في مصر، ولا في العراق، ولا خراسان، ولو كان للمسلمين به منفعة في دينهم لفعله السلف .

ولم يحضره مثل : إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا السري السقطي ، ولا أبو سليمان الداراني، ولا مثل الشيخ عبد القادر، والشيخ

(١) سبق تخريجه ص ٣٥ .

عدي، والشيخ أبي البيان، ولا الشيخ حياة، وغيرهم، بل في كلام طائفة من هؤلاء - كالشيخ عبد القادر وغيره - النهي عنه. وكذلك أعيان المشائخ.

وقد حضره من المشائخ طائفة، وشرطوا له المكان، والإمكان، والخلان، والشيخ الذي يحرس من الشيطان. وأكثر الذين حضروه من المشائخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر عمرهم. كالجنيد فإنه حضره وهو شاب، وتركهم في آخر عمره، وكان يقول: من تكلف السماع / فتن به، ومن صادفه السماع استراح به. فقد ذم من يجتمع له، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد. ولا اعتماد للجلوس له.

١١/٥٩٣

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل. فإن الأبيات المتضمنة لذكر الحب، والوصل والهجر، والقطيعة، والشوق، والتيم، والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك، هو قول مجمل، يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب الإخوان، ومحب الأوطان، ومحب النسوان، ومحب المردان. فقد يكون فيه منفعة إذا هيج القاطن، وأثار الساكن، وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله. لكن فيه مضرة راجحة على منفعته: كما في الخمر والميسر، فإن فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما.

فلهذا لم تأت به الشريعة، لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة.

وأما ما تكون مفسدته غالبية على مصلحته، فهو بمنزلة من يأخذ درهما بدينار، أو يسرق خمسة دراهم، ويتصدق منها بدرهمين.

وذلك أنه يهيج الوجد المشترك، فيثير من النفس كوامن تضره آثارها، ويغذي النفس ويفتنها، فتعتاض به عن سماع القرآن، حتى لا يبقى فيها محبة لسماع القرآن ولا التذاذ به، ولا استطابة له، بل / يبقى في النفس بغض لذلك، واشتغال عنه، كمن شغل نفسه بتعلم التوراة والإنجيل، وعلوم أهل الكتاب، والصابئين واستفادته العلم والحكمة منها، فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله، إلى أشياء أخرى تطول.

١١/٥٩٤

فلما كان هذا السماع لا يعطي بنفسه ما يحبه الله ورسوله من الأحوال والمعارف، بل قد يصد عن ذلك، ويعطي ما لا يحبه الله ورسوله، أو ما يبغضه الله ورسوله، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا سلف الأمة ولا أعيان مشائخها.

ومن نكته أن الصوت يؤثر في النفس بحسنة: فتارة يفرح، وتارة يحزن، وتارة يغضب، وتارة يرضى، وإذا قوى أسكر الروح فتصير في لذة مطربة من غير تمييز. كما يحصل للنفس إذا سكرت بالرقص، وللمجسد أيضاً إذا سكر بالطعام والشراب، فإن السكر هو الطرب الذي يؤثر لذة بلا عقل، فلا تقوم منفعته بتلك اللذة بما يحصل من غيبة

العقل، التي صدت عن ذكر الله وعن الصلاة، وأوقعت العداوة والبغضاء.

و بالجملة فعلى المؤمن أن يعلم : أن النبي ﷺ لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث به، ولا شيئاً يبعد عن / النار إلا وقد حدث به، وإن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ، وإذا وجد فيه منفعة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك، لا من الكتاب ولا من السنة ، لم يلتفت إليه.

قال سهل بن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وقال أبو سليمان الداراني : إنه لتلم بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة، وقال أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله ، حتى يجد فيه أثراً. فإذا وجد فيه أثراً كان نوراً على نور.

وقال الجنيد بن محمد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ، ولم يكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا.

و أيضاً فإن الله يقول في الكتاب: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥] ، قال السلف من الصحابة والتابعين : «المكاء» كالصفير ونحوه، من التصويت، مثل الغناء. و«التصدية» : التصفيق باليد. فقد أخبر الله عن المشركين أنهم كانوا يجعلون التصدية / والغناء لهم صلاة ، وعبادة، وقربة، يعتاضون به عن الصلاة التي شرعها الله ورسوله.

وأما المسلمون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فصلاتهم وعبادتهم القرآن، واستماعه، والركوع والسجود، وذكر الله ودعاؤه، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله، فمن اتخذ الغناء والتصفيق عبادة وقربة فقد ضاهى المشركين في ذلك، وشابههم فيما ليس من فعل المؤمنين: المهاجرين والأنصار. فإن كان يفعله في بيوت الله فقد زاد في مشابهته أكبر وأكبر. واشتغل به عن الصلاة وذكر الله ودعائه، فقد عظمت مشابهته لهم. وصار له كفل عظيم من الذم الذي دل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾.

لكن قد يغفر له ذلك لاجتهاده، أو لحسنات ماحية، أو غير ذلك. فيما يفرق فيه بين المسلم والكافر. لكن مفارقتة للمشركين في غير هذا لا يمنع أن يكون مذموماً خارجاً عن الشريعة، داخلاً في البدعة التي ضاهى بها المشركين، فينبغي للمؤمن أن يتفطن لهذا، ويفرق بين سماع المؤمنين الذي أمر الله به ورسوله، وسماع المشركين الذي نهى الله عنه

/ ويعلم أن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين ، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين ، وإن كان قد غلط فيه قوم من صالح المسلمين ، فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاتهم ، لما وقع من خطئهم ، فإن النبي ﷺ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد » (١) .

وهذا كما أن جماعة من السلف قاتلوا أمير المؤمنين علياً بتأويل ، وعلي بن أبي طالب وأصحابه أولى بالحق منهم ، وقد قال فيهم : من قصد الله فله الجنة .

وجماعة من السلف والخلف استحلوا بعض الأشربة بتأويل - وقد ثبت بالكتاب والسنة تحريم ما استحلوه - وإن كان خطوهم مغفوراً لهم .

والذين حضروا هذا السماع من المشائخ الصالحين شطوا له شروطاً لا توجد إلا نادراً ، فعامة هذه السماعات خارجة عن إجماع المشائخ ، ومع هذا فأخطؤوا - والله يغفر لهم خطأهم فيما خرجوا به عن السنة - وإن كانوا معذورين .

والسبب الذي أخطؤوا فيه أوقع أمماً كثيرة في المنكر الذي نهوا / عنه ، وليس للعالمين شرعة ولا منهاج ، ولا شريعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ كما كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ » (٢) .

ومن غلط بعضهم توهمه أن النبي ﷺ والصحابة والتابعين حضروا هذا السماع ، سماع المكاء والتصدية ، والغناء والتصفيق بالأكف ، حتى روى بعض الكاذبين أن النبي ﷺ أنشده أعرابي شعراً ، قوله :

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راقبي
سوى الحبيب الذي شغفت به فمته دائي ومنه ترياقبي

وأن النبي ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه ، وقال : « ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر المحبوب » (٣) . وهذا الحديث كذب بإجماع العارفين بسيرة رسول الله ﷺ وسنته وأحواله .

كما كذب بعض الكذابين : أن أهل الصفة قاتلوا المؤمنين مع / المشركين ، وأمثال هذه الأمور المكذوبة إنما يكذبها من خرج عن أمر الله ورسوله ، وأطبقت عليه طوائف من الجاهلين بأحوال الرسول وأصحابه ، بل بأصول الإسلام .

(١) سبق تخريجه ص ١٠٧ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٢ .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠٦ .

وأما «الرقص» فلم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من الأئمة بل قد قال الله في كتابه : ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان : ١٩] ، وقال في كتابه : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان : ٦٣] ، أي : بسكينة، ووقار .

وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود ، بل الدف والرقص في الطابق لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من سلف الأمة، بل أمروا بالقرآن في الصلاة، والسكينة ، ولو ورد على الإنسان حال يغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع، وكان ذلك الحال بسبب مشروع، كسماع القرآن و نحوه، سلم إليه ذلك الحال كما تقدم، فأما إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به، مع علمه بأنه يوقعه فيما لا يصلح له : مثل شرب الخمر، مع علمه أنها تسكره، وإذا قال : ورد على الحال، وأنا سكران قيل له : إذا كان السبب محظوراً ، لم يكن السكران معذوراً .

فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقاً فهو مبتدع، ضال ، من جنس خفراء العدو، وأعوان الظلمة، من ذوي الأحوال الفاسدة الذين ضارعوا عباد النصارى، والمشركين، والصابئين في بعض ما لهم من الأحوال، / ومن كان كاذباً فهو منافق ضال. ١١/٦٠٠

قال سيد المسلمين في وقته - الفضيل بن عياض - في قوله تعالى : ﴿لِيَلْبِسَكُمْ أِيكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك : ٢] ، قال : أخلصه، و أصوبه، قيل له : يا أبا علي ما أخلصه؟ وأصوبه؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة .

وكان يقول : من قر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام، ومن زوج كريمته لصاحب بدعة فقد قطع رحمها، ومن انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً. وأكثر إشارته وإشارات غيره من المشايخ بالبدعة إنما هي إلى البدع في العبادات والأحوال، كما قال عن النصارى : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد : ٢٧] ، وقال ابن مسعود : عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة، ذكر الله خالياً فاقشعر جلده من مخافة الله، إلا تحاتت عنه خطاياهم كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً فدمعت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإن اقتصادا في سبيل وسنة، خير من اجتهدا في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم - إن كانت اجتهداً أو اقتصاداً - على منهاج الأنبياء وستتهم .

/وأما قول القائل : هذه شبكة يصاد بها العوام، فقد صد . فإن أكثرهم إنما يتخذون ١١/٦٠١

ذلك شبكة لأجل الطعام، والتوانس على الطعام، كما قال الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، ومن فعل هذا فهو من أئمة الضلال، الذين قيل في رؤوسهم: ﴿يَوْمَ تَقْلَبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّهِمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

وأما الصادقون منهم: فهم يتخذونه شبكة، لكن هي شبكة مخروقة يخرج منها الصيد إذا دخل فيها، كما هو الواقع كثيراً، فإن الذين دخلوا في السماع المبتدع في الطريق، ولم يكن معهم أصل شرعي شرعه الله ورسوله، أورثتهم أحوالاً فاسدة (١).

والى عبادته ومحبته، وطاعته، والرغبة إليه، والتبذل له والتوكل عليه أحسن من (٢) الإسلامية، والشرعية القرآنية، والمناهج (٣) الموصلة للحقيقة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة.

/ وإذا كان غير مشروع، ولا مأمور به، فالتطهر، أو الإنصات له، واستفتاح باب الرحمة هو من جنس عادة الرهبان، ليس من عبادة أهل الإسلام، والإيمان، ولا عبادة أهل القرآن، ولا من أهل السنة والإحسان، والحمد لله وحده.

/ سئل عن قال: إن السماع على الناس حرام وعليّ حلال هل يفسق في ذلك أم لا؟
فأجاب - رضي الله عنه :

من ادعى أن المحرمات تحريمًا عامًا: كالفواحش، والظلم والملاهي، حرام على الناس حلال له فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، ومن ادعى في الدفوف والشباب أنهما حرام على بعض الناس دون بعض فهذا مخالف للسنة، والإجماع، وأئمة الدين، وهو ضال من الضلال. ومن تم مصرًا على مثل ذلك كان فاسقًا. والله أعلم.

(١-٣) بياض بالأصل.

١١/٦٠٤ / سئل عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف، ثم يسجد بعضهم لبعض على وجه التواضع، هل هذا سنة؟ أو فعله الشيوخ الصالحون؟.

الجواب :

لا يجوز السجود لغير الله، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة هو من البدع التي لم يفعلها سلف الأمة، ولا أكابر شيوخها : كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي، والسري السقطي ، وغير هؤلاء.

وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل : الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي، والشيخ أبي مدين، والشيخ أبي البيان ، وغير هؤلاء ، فإنهم لم يحضروا «السماع البدعي» بل كانوا يحضرون « السماع الشرعي» سماع الأنبياء، وأتباعهم كسماع القرآن . والله أعلم.

/ سئل شيخ الإسلام عن رجل يحب السماع والرقص، فأشار عليه رجل . فقال هذه الآيات :

أنكروا رقصاً وقالوا حرام فعليهم من أجل ذلك سلام
أعبد الله يا فقيه، وصل والزم الشرع فالسماع حرام
بل حرام عليك، ثم حلال عند قوم أحوالهم لا تلام
مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام
فإذا قوبل السماع بلهو فحرام على الجميع حرام

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، هذا الشعر يتضمن منكراً من القول وزوراً ؛ بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة، وآخره يفتح باب الزندقة والإلحاد، والمخالفة للحقيقة الإلهية الدينية النبوية . وذلك أن قول القائل :

مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام

/ يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران، الذي نودي من جانب الطور . ولما رأى النار ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩] .

وهذا قول طائفة من الناس، يسلكون طريق الرياضة والتصفية، ويظنون أنهم بذلك يصلون إلى أن يخاطبهم الله، كما خاطب موسى بن عمران ، وهؤلاء ثلاثة أصناف :

« صنف » يزعمون أنهم يخاطبون بأعظم مما خاطب به موسى بن عمران . كما يقول ذلك من يقول من أهل الوحدة والاتحاد . القائلين بأن الوجود واحد . كصاحب «الفصوص» وأمثاله .

فإن هؤلاء يدعون أنهم أعلى من الأنبياء، وأن الخطاب الذي يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، و معلوم أن هذا الكفر أعظم من كفر اليهود والنصارى، الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم، لكن يؤمنون ببعض الأنبياء، ويكفرون ببعض .

والتنوع الثاني : من يقول : إن الله يكلمه مثل كلام موسى بن عمران ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والمتصوفة ، الذين / يقولون : إن تكليم موسى فيض فاض على قلبه من العقل الفعال ، ويقولون : إن النبوة مكتسبة .

١١/٦٠٧

و النوع الثالث : الذين يقولون : إن موسى أفضل ، لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه موسى ، ولكن موسى مقصوداً بالتكليم دون هذا ، كما يوجد هذا في أخبار صاحب «مشكاة الأنوار» ، وكذلك سلك مسلكه صاحب «خلع النعلين» ، وأمثالهما .

وأما قوله في أول الشعر لمن يخاطبه : «الزم الشرع يا فقيه وصل» ، يشعر بأنك أنت تبع الشرع ، وأما نحن فلنا إلى الله طريق غير الشرع ، ومن ادعى أن له طريقاً إلى الله يوصله إلى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التي بعث الله بها رسوله ، فإنه أيضاً كافر ، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه ، كطائفة أسقطوا التكليف ، وزعموا أن العبد يصل إلى الله بلا متابعة الرسل .

و«طائفة» يظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعة محمد ﷺ ، كما استغنى الخضر عن متابعة موسى ، وجهل هؤلاء أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ومحمد ﷺ رسول إلى كل أحد ظاهراً وباطناً ، مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى ، بل وافقتها ، ولكن الأسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى علمها ، فلما علمها تبين أن الأفعال توافق شريعته لا تخالفها .

١١/٦٠٨ / وسئل عن الذين يعملون النار والإشارات ، مثل النبل والزعفران ، وغير ذلك ؟

فأجاب :

أما هؤلاء الذين يظهرون «الإشارات» كالنبل والزعفران والمسك ، والنار ، والجة ، فليسوا من أولياء الله الصالحين ؛ بل هم من أحزاب الشياطين ، وأحوالهم شيطانية ليست من كرامات الصالحين ، وهم يفسدون العقول ، والأديان ، والأعراض ، والنساء ، والصبيان . ولا يحسن الظن بهم إلا جاهل عظيم الجهالة ، أو عدو لله ورسوله ، فإنهم من جنس التتر المحاربين لله ورسوله . والله أعلم .

/ سئل عن رجل فلاح لم يعلم دينه ولا صلاته ، وإن في بلده شيخاً أعطاه إجازة ، وبقي يأكل الثعابين والعقارب ، ونزل عن فلاحته ، ويطلب رزقه . فهل تجوز الصدقة عليه أم لا ؟

فأجاب :

الحمد لله ، أكل الخبائث ، وأكل الحيات والعقارب حرام بإجماع المسلمين . فمن أكلها مستحلاً لذلك فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . ومن اعتقد التحريم وأكلها فإنه فاسق عاص لله ورسوله ، فكيف يكون رجلاً صالحاً؟! ولو ذكى الحية لكان أكلها بعد ذلك حراماً عند جماهير العلماء ؛ لأن النبي ﷺ قال : «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الحية ، والعقرب ، والحدأة ، والفأر ، والكلب العقور»^(١) .

فأمر النبي ﷺ بقتل ذلك في الحل والحرم ، وسماهن فواسق ؛ لأنهن يفسدن : أي يخرجن على الناس ، ويعتدين عليهم ، فلا يمكن الاحتراز منهن ، كما لا يحترز من السباع العادية ، فيكون / عدوان هذا أعظم من عدوان كل ذي ناب من السباع ، وهن أخبث وأحرم .

وأما الذين يأكلون ويجعلون ذلك من باب « كرامات الأولياء » فهم أشر حالا ممن يأكلها من الفساق ؛ لأن كرامات الأولياء لا تكون بما نهى الله عنه ورسوله ، من أكل الخبائث ، كما لا تكون بترك الواجبات ، وإنما هذه المخاريق التي يفعلها هؤلاء المبتدعون : من الدخول في النار ، وأخذ الحيات ، وإخراج اللاذن ، والسكر ، والدم ، وماء الورد . هي نوعان :

أحدهما : أن يفعلوا ذلك بحيل طبيعية . مثل أدهان معروفة ، يذهبون ويمشون في النار ، ومثل ما يشربه أحدهم مما يمنع سم الحية : مثل أن يمسكها بعنقصتها حتى لا تضربه ، ومثل أن يمسك الحية المائية ، ومثل أن يسلخ جلد الحية ويحشوه طعاماً ، وكم قتلت الحيات من أتباع هؤلاء؟! ومثل أن يمسح جلده بدم أخوين ؛ فإذا عرق في السماع ظهر منه ما يشبه الدم ، ويصنع لهم أنواعاً من الحيل والمخادعات .

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٣١٤) ، ومسلم في الحج (٦٧/١١٩٨) ، والترمذي في الحج (٨٣٧) كلهم عن عائشة ، واللفظ لمسلم .

النوع الثاني: وهم أعظم، عندهم أحوال شيطانية تعترهم عند السماع الشيطاني، فتتزل الشياطين عليهم ، كما تدخل في بدن المصروع ويزيد أحدهم كما يزيد المصروع، وحينئذ يباشر النار، والحيات / والعقارب، ويكون الشيطان هو الذي يفعل ذلك، كما يفعل ذلك من تقترن بهم الشياطين من إخوانهم، الذين هم شر الخلق عند الناس، من الطائفة التي تطلبهم الناس لعلاج المصروع، وهم من شر الخلق عند الناس، فإذا طلبوا تحلوا بحلية المقاتلة ، ويدخل فيهم الجن، فيحارب مثل الجن الداخل في المصروع، ويسمع الناس أصواتًا، ويرون حجارة يرمى بها، ولا يرون من يفعل ذلك، ويرى الإنسي واقفًا على رأس الرمح الطويل، وإنما الواقف هو الشيطان، ويرى الناس نارًا تحمي، ويضع فيها الفؤوس والمساحي، ثم إن الإنسي يلحسها بلسانه، وإنما يفعل ذلك الشيطان الذي دخل فيه، ويرى الناس هؤلاء يباشرون الحيات والأفاعي وغير ذلك، ويفعلون من الأمور ما هو أبلغ مما يفعله هؤلاء المبتدعون الضالون المكذبون الملبسون، الذين يدعون أنهم أولياء الله، وإنما هم من أعاديته، المضيعين لفرائضه، المتعدين لحدوده.

والجهال لأجل هذه الأحوال الشيطانية، والطبيعية، يظنونهم أولياء الله، وإنما هذه الأحوال من جنس أحوال أعداء الله الكافرين، والفاسقين، ولا يجوز أن يعان من هؤلاء على ترك المأمور، ولا فعل المحذور، ولا إقامة مشيخة تخالف الكتاب والسنة ، ولا أن يعطى رزقه على مشيخة يخرج بها من طاعة الله ورسوله، وإنما يعان بالأرزاق من قام بطاعة الله ورسوله، ودعا إلى طاعة الله ورسوله، والله أعلم.

/ وسئل عن رجل منقطع في بيته لا يخرج ولا يدخل ، ويصلي في بيته ، ولا يشهد الجماعة ، وإذا خرج إلى الجمعة يخرج مغطى الوجه ، ثم إنه يخترع العياط من غير سبب ، وتجتمع عنده الرجال والنساء ، فهل يسلم له حاله ؟ أو يجب الإنكار عليه ؟

فأجاب :

هذه الطريقة طريقة بدعية ، مخالفة للكتاب والسنة ، ولما أجمع عليه المسلمون . والله تعالى إنما يعبد بما شرع ، لا يعبد بالبدع ، قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] ، فإن التعبد بترك الجمعة والجماعة ، بحيث يرى أن تركهما أفضل من شهودهما مطلقاً كفر ، يجب أن يستتاب صاحبه منه ، فإن تاب وإلا قتل . فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام ألا يعبد بترك الجمعة والجماعة ، بل يعبد بفعل الجمعة والجماعة ، ومن جعل الانقطاع من ذلك ديناً لم يكن على دين المسلمين ، بل يكون من جنس الرهبان الذين يتخلون بالصوامع والديارات ، والواحد من هؤلاء قد يحصل له بسبب الرياضة ، أو الشياطين - بتقريبه إليهم ، أو غير ذلك - نوع كشف ، وذلك لا يفيد ؛ بل هو كافر بالله ورسوله محمد ﷺ .

والله تعالى أمر الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً ، / ويعبدوه بما شرع ، وأمر أن لا يعبدوه بغير ذلك . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ لِيَلْوَكُمُ أَكْبَمُ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] .

فالسالك طريق الزهادة والعبادة إذا كان متبعاً للشرعية في الظاهر ، وقصد الرياء والسمعة ، وتعظيم الناس له كان عمله باطلا لا يقبله الله . كما ثبت في الصحيح أن الله يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك »^(١) . وفي الصحيح عنه أنه قال : « مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ »^(٢) .

وإن كان خالصاً في نيته لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة : مثل الذي يصمت دائماً ، أو يقوم في الشمس ، أو على السطح دائماً ، أو يتعري من الثياب دائماً ، ويلتزم لبس الصوف ، أو لبس الليف ، ونحوه أو يغطى وجهه ، أو يمتنع من أكل الخبز ، أو اللحم ، أو

(١) مسلم في الزهد (٢٩٨٥ / ٤٦) .

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٩٩) ومسلم في الزهد (٢٩٨٦ / ٤٧) .

شرب الماء، ونحو ذلك - كانت هذه العبادات باطلة، ومردودة. كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (١). وفي رواية: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢). وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: « ما هذا ؟ » قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر الصمت، والقيام والبروز / للشمس مع الصوم، فأمره النبي ﷺ بالصوم وحده (٣)؛ لأنه عبادة يحبها الله تعالى، وما عداه ليس بعبادة وإن ظنها الظان تقربه إلى الله تعالى. وثبت عنه ﷺ أنه كان يقول في خطبته: « إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة » (٤).

وثبت عنه في الصحيح: أن قوماً من أصحابه قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا فلا أكل اللحم، فقال النبي ﷺ: « ما بال رجال يقول أحدهم: كيت وكيت! لكنني أصوم وأفطر، وأنام، وأتزوج النساء، وأكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٥)، فإذا كان هذا فيما هو جنسه عبادة، فإن الصوم والصلاة جنسها عبادة، وترك اللحم والتزويج جائز، لكن لما خرج في ذلك من السنة فالتزم القدر الزائد على المشروع، والتزم هذا ترك المباح، كما يفعل الرهبان، تبرأ النبي ﷺ ممن فعل ذلك، حيث رغب عن سنته إلى خلافها، وقال: « لا رهبانية في الإسلام » (٦) فكيف بمن يرغب عما هو من أعظم شائئ الإسلام، وهو الصلاة في الجمعة، والجماعات؟!

وقد روى عن ابن عباس أنهم سألوه غير مرة عما يصوم / النهار، ويقوم الليل، ولا يشهد الجمعة، ولا جماعة. فقال: هو في النار. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليطنعن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين » (٧) وقال: « من ترك ثلاث جمع تهاوتاً من غير عذر طبع الله على قلبه » (٨). وفي الصحيح والسنن: إن أعمى قال: يا رسول الله، إن لي قائداً لا يلائمني، فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي؟ قال: « هل تسمع النداء؟ » قال: نعم، قال: « فأجب ». وفي رواية قال: « لا أجد لك رخصة » (٩).

(١) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ومسلم في الأفضية (١٧١٨ / ١٧).

(٢) مسلم في الأفضية (١٧١٨ / ١٧).

(٣) سبق تخريجه ص ١١٣. (٤) سبق تخريجه ص ٢٢.

(٥) سبق تخريجه ص ١١٣. (٦) أحمد ٢٢٦ / ٦.

(٧) مسلم في الجمعة (٨٦٥ / ٤٠) ولم نعثر عليه في البخاري.

(٨) أحمد ٣ / ٤٢٤ والترمذي في أبواب الصلاة (٥٠٠) وقال: « حسن ».

(٩) مسلم في المساجد (٦٥٣ / ٢٥٥)، وأبو داود في الصلاة (٥٥٢)، والنسائي في الإمامة (٨٥٠).

و «الجمعة» فريضة باتفاق الأئمة.

و «الجماعة» واجبة أيضاً ، عند كثير من العلماء ، بل عند أكثر السلف ، وهل هي شرط في صحة الصلاة على قولين:

أقواهما كما في سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال: « من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له »^(١).

وعند طائفة من العلماء: أنها واجبة على الكفاية.

و «أحد الأقوال» أنها سنة مؤكدة، ولا نزاع بين العلماء أن صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته وحده خمساً وعشرين ضعفاً.

/ كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ . ولا نزاع بينهم أن من جعل صلاته وحده أفضل من صلاته في جماعة فإنه ضال مبتدع، مخالف لدين المسلمين.

١١/٦١٦

وهذه البدع يذم أصحابها ، ويعرف أن الله لا يتقبلها، وإن كان قصدتهم بها العبادة ، كما أنه لا يقبل عبادة الرهبان، ونحوهم ممن يجتهدون في الزهد والعبادة لأنهم لم يعبدوه بما شرع، بل ببدعة ابتدعوها، كما قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، فإن المتعبد بهذه البدع قصده أن يعظم ويزار ، وهذا عمله ليس خالصاً لله، ولا صواباً على السنة، بل هو كما يقال: زغل، وناقص، بمنزلة لحم خنزير ميت، حرام من وجهين.

والواجب على كل مسلم التزام عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، والأمر بذلك لكل أحد، والنهي عن ضد ذلك لكل أحد، والإنكار على من يخرج عن ذلك، ولو طار في الهواء، ومشى على الماء وليس تحت أديم السماء أحد يقر على خلاف ما جاء به رسول الله ﷺ ، بل إن كان مقررًا بالإسلام ألزمه بطاعة الرسول، واتباع سنته الواجبة، وشريعته الهادية، وإن كان غير مقرر بالإسلام كان كافرًا، ولو كان له من الزهد والرهبان ماذا عسى أن يكون .

/ والكافر إن كان من أهل الذمة فله حكم أمثاله، وإن كان من أهل الحرب فله حكم أمثاله، ويجب الإنكار على هذا المبتدع وأمثاله بحسن قصد، بحيث يكون المقصود طاعة الله ورسوله، لا اتباع هوى، ولا منافسة ولا غير ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

١١/٦١٧

فالمقصود أن يكون الدين كله لله، ولا دين إلا ما شرعه الله تعالى على ألسن رسله،

(١) أبو داود في الصلاة (٥٥١)، عن ابن عباس.

وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ قيل له : يا رسول الله، الرجل يقاتل شجاعة، ويقاقل حمية، ويقاقل رياء. فأبي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»^(١) فيكون المقصود علو كلمة الله، وظهور دين الله. وأن يعلم المسلمون كلهم إن ما عليه المبتدعون المراءون ليس من الدين، ولا من فعل عباد الله الصالحين، بل من فعل أهل الجهل والضلال والإشراك بالله تعالى، الذين يخرجون عن توحيده، وإخلاص الدين له، وعن طاعة رسوله.

و«أصل الإسلام»: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فمن طلب بعبادته الرياء والسمعة، فلم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله، / ومن خرج عما أمره به الرسول من الشريعة وتعد بالبدعة فلم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله.

وإنما يحقق هذين «الأصلين» من لم يعبد إلا الله، ولم يخرج عن شريعة رسول الله ﷺ التي بلغها عن الله، فإنه قال: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»^(٢)، وقال: «ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد حدثتكم به، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به»^(٣). وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، وخط خطوطاً عن يمينه، وشماله ثم قال: «هذا سبيل الله، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» [الأنعام: ١٥٣] ^(٤).

فالعبادات والزهادات والمقالات والتورعات الخارجة عن سبيل الله - وهو الصراط المستقيم: الذي أمرنا الله أن نسأله هدايته، هو ما دل عليه السنة - هي سبل الشيطان، ولو كان لأحدهم من الخوارق ما كان، فليس أحدهم بأعظم من مقدمهم الدجال الذي يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: انبتي فتنبت، وللخربة: أظهر كنوزك فتخرج معه كنوز الذهب والفضة. وهو مع هذا عبدو الله، كافر بالله، وأولياء الله هم المذكورون في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] فهم المؤمنون المتقون، والتقوى فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، فمن ترك ما أمر الله، واتخذ عبادة نهى الله عنها، كيف يكون من هؤلاء؟

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً» الحديث ^(٥). فبين سبحانه أنه ما تقرب العبد إلى الله بمثل أداء ما افترض عليه.

(١) البخاري في العلم (١٢٣) ومسلم في الإمامة (١٩٠٤ / ١٤٩ - ١٥١).

(٢) أحمد ٤ / ١٢٦ وابن ماجه في المقدمة (٤٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢ / ١٥٦) والهيثم في المجمع (٨ / ٢٦٦) وقال: «رجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة».

(٤) سبق تخريجه ص ٣١١. (٥) سبق تخريجه ص ١٦.

والتقرب بالواجبات فقط طريق المقتصدين أصحاب اليمين، ثم التقرب بعد ذلك بما أحبه الله من النوافل هو طريق السابقين المقربين، والمحجوبات هي ما أمر الله به ورسوله: أمر إيجاب، أو أمر استحباب، دون ما استحبه الرجل برأيه وهواه، والله سبحانه وتعالى أعلم .

/ وسئل شيخ الإسلام علامة الزمان، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني - رضي الله عنه - عن «جماعة» يجتمعون على قصد الكبائر: من القتل، وقطع الطريق، والسرقه، وشرب الخمر، وغير ذلك. ثم إن شيخاً من المشائخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك، فلم يمكنه إلا أن يقيم لهم سماعاً يجتمعون فيه بهذه النية، وهو بدف بلا صلاصل، وغناء المغني بشعر مباح بغير شبابة، فلما فعل هذا تاب منهم جماعة، وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورع عن الشبهات، ويؤدي المفروضات، ويجتنب المحرمات. فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه، لما يترتب عليه من المصالح، مع أنه لا يمكنه دعوتهم إلا بهذا؟

فأجاب:

الحمد لله رب العالمين.

أصل جواب هذه المسألة وما أشبهه : أن يعلم أن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ، ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا. وأنه أكمل له ولأمته الدين. كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] . وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه، والشقاوة لمن عصاه، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن : ٢٣] .

وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] ، وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، [٥٣]

وأخبر أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث . كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا / لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧] .

وقد أمر الله الرسول ﷺ بكل معروف ونهى عن كل منكر . وأحل كل طيب، وحرم كل خبيث . وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال : « ما بعث الله نبيا إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم »^(١)، وثبت عن العرياض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون . قال : فقلنا: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور . فإن كل بدعة ضلالة»^(٢) . وثبت عنه ﷺ أنه قال : «ما تركت من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به»^(٣) . وقال : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٤) .

/وشواهد هذا « الأصل العظيم الجامع » من الكتاب والسنة كثيرة وترجم عليه أهل العلم في الكتب . «كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة» كما ترجم عليه البخاري والبعوي وغيرهما، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين . وكان السلف - كما لك وغيره - يقولون: السنة كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، وقال الزهري: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة .

إذا عرف هذا فمعلوم أن ما يهدي الله به الضالين ويرشد به الغاوين ويتوب به على العصاين، لابد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول ﷺ لا يكفي في ذلك ، لكان دين الرسول ناقصا، محتاجا تمة . وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب ، والأعمال الفاسدة نهى الله عنها .

(١) مسلم في الإمامة (١٨٤٤ / ٤٦) وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦) .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٥٧ . (٤،٣) سبق تخريجهما ص ٣٣٥ .

والعمل إذا اشتمل على مصلحة ومفسدة، فإن الشارع حكيم. فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه، بل نهى عنه، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ / عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولهذا حرمها الله تعالى بعد ذلك.

١١/٦٢٤

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقرباً إلى الله، ولم يشرعه الله ورسوله، فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه، وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع، فإنه ﷺ حكيم، لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين.

إذا تبين هذا فتقول للسائل : إن الشيخ المذكور قصد أن يتوب المجتمعون على الكبائر. فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي، يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة، أو عاجز عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية.

فلا يجوز أن يقال : إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية، التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي؛ / بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان - وهم خير أولياء الله المتقين، من هذه الأمة - تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية. وأمصار المسلمين وقراهم قديماً وحديثاً مملوءة ممن تاب إلى الله واتقاه، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية.

١١/٦٢٥

فلا يمكن أن يقال : إن العصاة لا تمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية، بل قد يقال : إن في الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية، عاجزاً عنها، ليس عنده علم بالكتاب والسنة، وما يخاطب به الناس، ويسمعهم إياه، مما يتوب الله عليهم، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية، إما مع حسن القصد، إن كان له دين، وإما أن يكون غرضه التراس عليهم، وأخذ أموالهم بالباطل، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤]، فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل، أو عجز، أو

غرض فاسد. وإلا فمن المعلوم أن سماع القرآن هو سماع النبيين، والعارفين، والمؤمنين . قال تعالى في النبيين : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

١١/٦٢٦

/ وقال تعالى في أهل المعرفة : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] . وقال تعالى في حق أهل العلم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩] . وقال في المؤمنين : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤] ، وقال تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] .

وبهذا السماع هدى الله العباد، وأصلح لهم أمر المعاش والمعاد، وبه بعث الرسول ﷺ، وبه أمر المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وعليه كان يجتمع السلف، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إذ اجتمعوا أمروا رجلاً منهم أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول لأبي موسى: ذكرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون . وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فجعل يستمع لقراءته . وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً / من مزامير آل داود»^(١) . وقال: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك» ، فقال: لو علمت أنك تسمعي لحبرته لك تحبيراً^(٢) . أي: لحسنه لك تحسيناً.

١١/٦٢٧

وفي الصحيح أنه ﷺ قال لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن» ، فقال: اقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟! فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري» . قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ، قال لي: «حسبك» ، فنظرت إليه فإذا عيناه تذرفان من البكاء^(٣) . وعلى هذا السماع كان يجتمع القرون الذين أثنى عليهم النبي ﷺ ، حيث قال: «خير القرون الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٤) .

ولم يكن في السلف الأول سماع يجتمع عليه أهل الخير إلا هذا . لا بالحجاز ، ولا

(٢) ، (٣) سبق تخريجها ص ١٦٤ .

(١) سبق تخريجه ص ٣٢٠ .

(٤) سبق تخريجه ص ٣٥ .

باليمن، ولا بالشام، ولا بمصر، والعراق، وخراسان، والمغرب. وإنما حدث السماع
المبتدع بعد ذلك، وقد مدح الله أهل هذا السماع، المقلين عليه، وذم المعرضين عنه،
وأخبر أنه سبب الرحمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٤: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا
وَعَمِيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا
نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ. كَانَتْهُمْ
حُمُرٌ مُسْتَفْرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ
بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمْ مَنِّي
هُدًى فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦]، ومثل هذا في القرآن كثير يأمر الناس باتباع ما
بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، ويأمرهم بسماع ذلك.

وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين في المغرب، والعشاء، والفجر. قال تعالى:
﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وبهذا مدح عبد الله بن رواحة
النبي ﷺ حيث قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
بيت يجافي جنبه عن إذ استثقلت بالكافرين
فراشه / أتى بالهدى بعد المضاجع

وأحوال أهل هذا السماع مذكورة في كتاب الله، من وجل القلوب، ودمع العيون،
واقشعرار الجلود، وإنما حدث سماع الآيات بعد هذه القرون، فأنكره الأئمة، حتى قال:
الشافعي - رحمه الله - خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير، يزعمون أنه
يرقق القلوب، يصدون به الناس عن القرآن، وسئل الإمام أحمد عنه فقال: محدث،
ف قيل له: أنجلس معهم فيه؟ فقال: لا يجلس معهم.

والتغبير هو الضرب بالقضيب على جلودهم، من أمثل أنواع السماع. وقد كرهه الأئمة
فكيف بغيره، والأئمة المشائخ الكبار لم يحضروا هذا السماع المحدث، مثل الفضيل ابن
عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري

السقطي^(١)، وأمثالهم. ولا أكابر الشيوخ المتأخرين: مثل الشيخ عبد القادر، والشيخ عدي، والشيخ أبي مدين، والشيخ أبي البيان، والشيخ أبي القاسم الحوفي، والشيخ علي ابن وهب، والشيخ حياة^(٢)، وأمثالهم. وطائفة من الشيوخ حضروه ثم رجعوا عنه. وسئل الجنيد عنه فقال: من تكلف السماع فتن به، ومن صادفه السماع استراح به. فبين الجنيد أن قاصد هذا السماع صار مفتوتًا، وأما من سمع ما يناسبه بغير قصد فلا بأس.

١١/٦٣٠

فإن النهي إنما يتوجه إلى الاستماع، دون السماع، ولهذا لو مر الرجل بقوم يتكلمون بكلام محرم لم يجب عليه سد أذنيه، لكن ليس له أن يستمع من غير حاجة، ولهذا لم يأمر النبي ﷺ ابن عمر بسد أذنيه لما سمع زمارة الراعي، لأنه لم يكن مستمعًا بل سامعًا^(٣).

وقول السائل وغيره: هل هو حلال؟ أو حرام؟ لفظ مجمل به تلبيس، يشتبه الحكم فيه، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه، وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين:

أحدهما: أنه هل هو محرم؟ أو غير محرم؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس، وغيرها. مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله.

والنوع الثاني: أن يفعل على وجه الديانة، والعبادة، وصلاح القلوب، وتجريد حب العباد لربهم، وتركية نفوسهم، وتطهير قلوبهم / وأن تحرك من القلوب الخشية، والإنابة، والحب، ورقة القلوب، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات، والطاعات، لا من جنس اللعب والملهيات.

١١/٦٣١

فيجب الفرق بين سماع المتقربين، وسماع المتلعبين، وبين السماع الذي يفعله الناس في الأعراس، والأفراح، ونحو ذلك من العادات، وبين السماع الذي يفعل لصلاح القلوب، والتقرب إلى رب السموات، فإن هذا يسأل عنه: هل هو قرينة وطاعة؟ وهل هو

(١) هو سري بن مغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادى المولد والوفاء، قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري السقطي، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما روى مضطجعاً إلا في علة الموت، من كلامه: من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز. توفي سنة ٨٦٧م. [الوفيات ٢/٣٥٧، والأعلام ٣/٨٢].

(٢) هو حياة بن الوليد اليحصبي، أحد الأشراف الشجعان. كان في أيام استيلاء عبد الرحمن الأموي على الأندلس، وامتنع مع أمير طليطلة، فوجه إليهما عبد الرحمن جيشاً فأسر حياة، وصلب بقرطبة، مات سنة ٧٦٤م. [الأعلام ٢/٢٨٩].

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠٨.

طريق إلى الله ؟ وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم، وتحريك وجدهم لمحبوبهم، وتزكية نفوسهم، وإزالة القسوة عن قلوبهم، ونحو ذلك من المقاصد التي تقصد بالسمع ؟ كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع في كنائسهم على وجه العبادة والطاعة، لا على وجه اللهو واللعب.

إذا عرف هذا فحقيقة السؤال: هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التي هي: إما محرمة، أو مكروهة، أو مباحة، قرينة وعبادة وطاعة، وطريقة إلى الله يدعو بها إلى الله، ويتوب العاصين، ويرشد به الغاوين، ويهدي به الضالين؟

ومن المعلوم أن الدين له «أصلاً» فلا دين إلا ما شرع الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله. والله تعالى عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله.

١١/٦٣٢ /ولو سئل العالم عمن يعدو بين جبلين: هل يباح له ذلك؟ قال: نعم، فإذا قيل: إنه على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة، قال: إن فعله على هذا الوجه حرام منكر، يستتاب فاعله، فإن تاب وإلا قتل.

ولو سئل عن كشف الرأس، وليس الإزار، والرداء: أفتى بأن هذا جائز، فإذا قيل: إنه يفعله على وجه الإحرام، كما يحرم الحاج. قال: إن هذا حرام منكر.

ولو سئل عمن يقوم في الشمس. قال: هذا جائز. فإذا قيل: إنه يفعله على وجه العبادة. قال: هذا منكر. كما روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس. فقال: «من هذا؟» قالوا: هذا أبو إسرائيل يريد أن يقوم في الشمس، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم. فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم، وليجلس، وليستظل وليتم صومه»^(١) فهذا لو فعله لراحة، أو غرض مباح لم ينه عنه، لكن لما فعله على وجه العبادة نهى عنه.

١١/٦٣٣ وكذلك لو دخل الرجل إلى بيته من خلف البيت، لم يحرم عليه ذلك، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة، كما كانوا يفعلون في الجاهلية: / كان أحدهم إذا أحرم لم يدخل تحت سقف، فنهوا عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فبين سبحانه أن هذا ليس ببر، وإن لم يكن حراماً، فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصياً، مذموماً، مبتدعاً، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن العاصي يعلم أنه عاص فيتوب،

(١) البخاري في الأيمان (٦٧٠٤) وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٠٠)

والمبتدع يحسب أن الذي يفعله طاعة فلا يتوب .

ولهذا من حضر السماع للعب واللهو لا يعده من صالح عمله ، ولا يرجو به الثواب ، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذه ديناً ، وإذا نهى عنه كان كمن نهى عن دينه ، ورأى أنه قد انقطع عن الله ، وحرّم نصيبه من الله تعالى إذا تركه ، فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين ، ولا يقول أحد من أئمة المسلمين : إن اتخاذ هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى أمر مباح ، بل من جعل هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى فهو ضال ، مفتر ، مخالف لإجماع المسلمين . ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم .

فالسؤال عن مثل هذا أن يقال : هل ما يفعله هؤلاء طريق وقربة وطاعة لله تعالى يحبها الله ورسوله أم لا ؟ وهل يثابون على ذلك أم لا ؟ وإذا لم يكن هذا قربة وطاعة وعبادة لله ، ففعلوه على أنه قربة / وطاعة وعبادة وطريق إلى الله تعالى . هل يحل لهم هذا الاعتقاد ؟ وهذا العمل على هذا الوجه ؟

١١/٦٣٤

وإذا كان السؤال على هذا الوجه لم يكن للعالم المتبع للرسول ﷺ أن يقول : إن هذا من القرب والطاعات ، وأنه من أنواع العبادات ، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذي يدعو به هؤلاء إليه ، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عباده : لا أمر بإيجاب ، ولا أمر باستحباب ، وما لم يكن من الواجبات والمستحبات فليس هو محموداً ، ولا حسنة ، ولا طاعة ، ولا عبادة ، باتفاق المسلمين .

فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع ، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب . لا سيما كثير من هؤلاء الذين يتخذون هذا السماع المحدث طريقاً يقدمونه على سماع القرآن وجداً وذوقاً . وربما قدموه عليه اعتقاداً ، فتجدهم يسمعون القرآن بقلوب لاهية ، وألسن لاغية ، وحركات مضطربة . وأصوات لا تقبل عليه قلوبهم ، ولا ترتاح إليه نفوسهم ، فإذا سمعوا «المكاء» و «التصدية» أصغت القلوب ، واتصل المحبوب بالمحب ، وخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، فلا سعة ، ولا عطاس ، ولا لغط ، ولا صياح ، وإن قرؤوا شيئاً من القرآن ، أو سمعوه كان على وجه التكلف والسخرة ، كما لا يسمع الإنسان ما لا حاجة له به ، / ولا فائدة له فيه ، حتى إذا ما سمعوا زممار الشيطان أحبوا ذلك ، وأقبلوا عليه ، وعكفت أرواحهم عليه .

١١/٦٣٥

فهؤلاء جند الشيطان ، وأعداء الرحمن ، وهم يظنون أنهم من أولياء الله المتقين ، وحالهم أشبه بحال أعداء الله المنافقين ، فإن المؤمن يحب ما أحبه الله تعالى ، ويبغض ما أبغض الله تعالى ، ويوالي أولياء الله ، ويعادي أعداء الله ، وهؤلاء يحبون ما أبغض الله ،

وييغضون ما أحب الله، ويوالون أعداء الله، ويعادون أولياءه، ولهذا يحصل لهم تنزلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مزامير الشيطان، وكلما بعدوا عن الله ورسوله وطريق المؤمنين قربوا من أعداء الله ورسوله، وجند الشيطان.

فيهم من يطير في الهواء والشيطان طائر به، ومنهم من يصرع الحاضرين وشياطينه تصرعهم. وفيهم من يحضر طعاماً، وإداماً، ويملاً الإبريق من الهواء والشياطين فعلت ذلك. فيحسب الجاهلون أن هذه من كرامات أولياء الله المتقين، وإنما هي من جنس أحوال الكهنة والسحرة وأمثالهم من الشياطين، ومن يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية والشيطانية لا يشتبه عليه الحق بالباطل.

وقد بسطنا الكلام على «مسألة السماع» وذكرنا كلام المشايخ فيه في غير هذا الموضع، وبالله التوفيق والله أعلم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قد كتبت فيما تقدم : الكلام في «المكاشفات، والمشاهدات»، وأنها على «ثلاثة أقسام» في الظاهر، والباطن. وكذلك «السماع، والمخاطبات، والمحادثات» ثلاثة أقسام: في الباطن والظاهر .

فإن «السامع» إما أن يسمع نفس الصوت الذي هو كلام المتكلم الصوتي، أو غير كلامه. كما ترى عينه، وإما أن يسمع صدى الصوت ورجعه كما يرى تمثاله في ماء، أو مرآة. فهذه رؤية مقيدة، وسماع مقيد، كما يقال: رأيت في المرآة، لكن السمع يجمع بين الصورتين.

وإما أن يتمثل له : يعني كلامه في أصوات مسموعة، كما يتمثل له في صورة فيراها. مثل أن ينقر بيده نقرات، أو يضرب بيده أوتاراً، أو يظهر أصواتاً منفصلة عنه، يبين فيها مقصوده.

/ وكذلك في الباطن: إما أن يسمع في المنام، أو في اليقظة نفس كلام المتكلم، مثل الملائكة مثلاً، كما يرى بقلبه عين ما يكشف له في المنام، واليقظة. وإما أن يسمع مثال كلامه في نفسه، كما يرى مثاله في نفسه بمنزلة الرؤيا التي يكون تعبيرها عين ما رؤى، وإما أن تتمثل له المعاني في صورة كلام مسموع يحتاج إلى تعبير. كما تتمثل له الأعيان في صورة أشخاص مرئية تحتاج إلى تعبير. وهذا غالب ما يرى، ويسمع في المنام، فإنه يحتاج إلى تأويل، وهو بمنزلة الاستعارة، والأمثال المضروبة، فهذا هذا. والله أعلم.

فصل

في الكون يقظة ومناماً: لما كانت الرؤية بالعين للأشياء على وجهين:

أحدهما: رؤية العين الشيء بلا واسطة، وهي الرؤية المطلقة. مثل رؤية الشمس، والقمر، كما قال النبي ﷺ: «إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»^(١)، وقد تنازع الناس هل الرؤية انطباع المرئي في العين، أو لانعكاس شعاع البصر، أو لا لواحد منهما. على أقوال معروفة.

١١/٦٣٨ / والثاني: رؤية المثال: وهي الرؤية في ماء، ومرآة، ونحوهما. وهي رؤية مقيدة، ولهذا قال الفقهاء لو حلف: لا رأيت زيداً، فرأى صورته في ماء، أو مرآة، لم يحنث، لأن ذلك ليس هو المفهوم من مطلق الرؤية، وهذا في الرؤية. كسماع الصدى في السمع، فإذا أراد الإنسان أن يرى ما يمر وراءه من الناس والدواب نظر في المرآة التي تواجهه، فتتجلي له فيها حقائق ما وراءه، فمن هذه الرؤيا قد يرى بيان الحقيقة، وقد تتمثل له الحقيقة بمثال يحتاج إلى تحقيق. كما تمثل جبريل في صورة البشر، وهكذا القلب من شأنه أن يبصر، فإن بصره هو البصر، وعماء هو العمى. كما قال تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [الحج: ٤٦].

فتارة يرى الشيء نفسه إذا كشف له عنه، وتارة يراه متمثلاً في قلبه الذي هو مرآته، والقلب هو الرائي أيضاً، وهذا يكون يقظة، ويكون مناماً، كالرجل يرى الشيء في المنام، ثم يكون إياه في اليقظة من غير تغير.

وللقلب «حال ثالثة» كما للعين نظر في المنام: وهي التي تقع لغالب الخلق. أن يرى الرؤيا مثلاً مضروباً للحقيقة، لا يضبط رؤية الحقيقة بنفسها، ولا بواسطة مرآة قلبه. ولكن يرى ما له تعبير فيعتبر به، و«عبارة الرؤيا» هو العبور من الشيء إلى مثاله، ونظيره. وهو / حقيقة المقايسة والاعتبار، فإن إدراك الشيء بالقياس والاعتبار الذي ألفه الإنسان واعتاده أيسر من إدراك شيء على البديهة من غير مثال معروف.

ثم المرئي في هذا الوجه، في هذه الحال، وفي الحال التي قبلها هو موجود في قلب الإنسان ونفسه، وإن كان مثلاً للحقيقة وواسطة لها.

والمرئي في الوجه الأول: هو عين الموجود في الخارج لا مرئي في القلب، ومن العامة المتفلسفة من يزعم: أن ما يسمعه الأنبياء من الكلام، ويرونه من الملائكة، إنما وجوده في قلوبهم، وذلك مبلغ هؤلاء من العلم؛ لأن ذلك هو غاية ما وجدوه ورأوه من أبناء

(١) سبق تخريجه ص ٢٦٢.

جنسهم، فظنوا أن ليس وراء ذلك غاية.

وقد يعارضهم من يتوهم أن ما يسمع ويرى لا يكون في نفس الإنسان، بل جميعه من الخارج ، وكلاهما خطأ، بل منه ما يكون في نفس الإنسان: مثل ما يراه ويسمعه في المنام، إما مثلاً لا تعبير له، أو له تعبير.

ومنه ما يكون في الخارج: مثل رؤية مريم للرسول، إذ تمثل لها / بشراً سوياً، ورؤية الصحابة لجبريل في صورة الأعرابي.

فقد ظهر أن رؤية الحقائق بالعين تطابق لرؤياها بالقلب ، كل منهما « ثلاثة أقسام » إدراك الموجود في الخارج بعينه، وإدراكه بواسطة تمثله في مرآة باطنة أو ظاهرة، وإدراكه متمثلاً في غير صورته، إما باطناً في القلب ، وإما ظاهراً في العين. والله سبحانه أعلم. فالقياس في الحسيات ، كالقياس في العقليات، وهذا الذي كتبه في المكاشفات يجيء مثله في المخاطبات، فإن البصر والسمع يظهران ما يتلوه.

١١/٦٤١ / سئل شيخ الإسلام عن يقول: إن بعض المشائخ إذا أقام السماع يحضره رجال الغيب، وينشق السقف والحيطان، وتنزل الملائكة ترقص معهم، أو عليهم. وفيهم من يعتقد أن النبي ﷺ يحضر معهم. فماذا يجب على من يعتقد هذا الاعتقاد؟ وما هي صفة رجال الغيب؟ وهل يكون للتتار خفراء ولهم حال كحال خفراء أمة محمد ﷺ، أم لا؟
فأجاب :

وأما من زعم : أن الملائكة أو الأنبياء تحضر «سماع المكاء والتصدية» محبة ورغبة فيه فهو كاذب مفتر، بل إنما تحضره الشياطين، وهي التي تنزل عليهم، وتنفع فيهم. كما روي الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ : « أن الشيطان قال: يا رب اجعل لي بيتاً. قال : بيتك الحمام. قال : اجعل لي قرآناً. قال : قرآنك الشعر. قال : يا رب اجعل لي مؤذناً . قال : مؤذنك المزمار »^(١) ، وقد قال الله تعالى في كتابه مخاطباً للشيطان : ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وقد فسر ذلك طائفة من / السلف بصوت الغناء. وهو شامل له وغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما نهيت عن صوتين أحمرين فاجرين: صوت لهو ولعب، ومزامير الشيطان، وصوت لطم خدود، أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية»^(٢) كقولهم: وا لهفاه! وا كبدها! وا نصيراه!.

وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماع الجاهلية : ذات المكاء ، والتصدية ، وكيف يكر الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني ، حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين ، ورأى بعض المشائخ المكاشفين أن شيطانه قد احتمله حتى رقص به . فلما صرخ بشيطانه هرب ، وسقط ذلك الرجل .

(١) الطبراني في الكبير (١١١٨١)، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ١١٩: «رواه الطبراني في الكبير وفيه يحيى بن صالح الأيلي ضعفه العقيلي ، قلت: ويأتي حديث أبي أمامة في أواخر الأدب في الشعر مثل هذا أو أتم إن شاء الله » وبلغه عن أبي أمامة في الطبراني في الكبير (٧٨٣٧)، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٢٢ : «رواه الطبراني وفيه على بن يزيد الألهماني وهو ضعيف».

(٢) الترمذي في الجنازة (١٠٠٥) وقال : «حديث حسن » ، وشرح السنة للبغوي ٥/ ٤٣١ (١٥٣٠) ، وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٠ : «رواه أبو يعلى والبخاري ، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وفيه كلام».

وهذه الأمور لها أسرار، وحقائق لا يشهد بها إلا أهل البصائر الإيمانية، والمشاهد الإيقانية، ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة، وأعرض عن سبيل المبتدعة، فقد حصل له الهدى، وخير الدنيا والآخرة، وإن لم يعرف حقائق الأمور بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادي، فإنه يصل إلى مقصوده، ويجد الزاد والماء في موطنه، وإن لم يعرف كيف يحصل ذلك وسببه. ومن سلك خلف غير الدليل / الهادي، كان ضالا عن الطريق. فإما أن يهلك، وإما أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق.

١١/٦٤٣

و«الدليل الهادي» هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهادياً إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

وآثار الشيطان تظهر في أهل السماع الجاهلي: مثل الإزباد، والإرغاء، والصراخات المنكرة، ونحو ذلك مما يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان، ولذلك يجدون في نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت: إما وجد في الهوى المذموم، وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية، التي تعترى أهل الاجتماع، على شرب الخمر إذا سكروا بها، فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالآشربة المطربة؛ فيصدّهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويمنع قلوبهم حلاوة القرآن، وفهم معانيه، واتباعه، فيصيرون مضارعين للذين يشتركون لهو الحديث ليعضلوا عن سبيل الله. ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية. كما يقتل العائن من أصابه بعينه.

ولهذا قال من قال من العلماء: إن هؤلاء يجب عليهم القود والدية / والفصاص، إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة، لأنهم ظالمون، وهم إنما يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة، كما يغتبط الظلمة المسلطون.

١١/٦٤٤

ومن هذا الجنس حال خفراء الكافرين، والمبتدعين والظالمين، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة، كما يكون للمشركين، وأهل الكتاب، وكما كان للخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»^(١).

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة، كما يكون لهم ملكة ظاهرة، فإن سلطان الباطن معناه السلطان الظاهر، ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون. وما فعلوه من الإعانة على الظلم فهم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب. وباب القدرة، والتمكن باطنًا وظاهرًا ليس مستلزمًا لولاية الله تعالى، بل قد يكون ولي الله متمكنًا ذا سلطان، وقد يكون مستضعفًا إلى أن ينصره الله، وقد يكون مسلطًا إلى أن ينتقم الله منه، فخفراء التتار في الباطن من جنس التتار في الظاهر، هؤلاء في العباد بمنزلة هؤلاء في الأجناد.

١١/٦٤٥ / وأما الغلبة فإن الله تعالى قد يدل الكافرين على المؤمنين تارة، كما يدل المؤمنين على الكافرين. كما كان يكون لأصحاب النبي ﷺ مع عدوهم، لكن العاقبة للمتقين، فإن الله يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وإذا كان في المسلمين ضعف، وكان عدوهم مستظهرًا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطنًا وظاهرًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

/ وسئل عن النساء اللاتي يتعممن بالعمائم الكبار ، لا يرين الجنة ، ولا يشممن رائحتها . وقد روى في الحديث عن رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة » (١) .

فأجاب :

قد ثبت في صحيح مسلم وغيره ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رؤوسهن مثل أسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، ورجال معهم سياط مثل أذنان البقر ، يضربون بها عباد الله » (٢) ، ومن زعم أن هذا الحديث ليس بصحيح بما فيه من الوعيد الشديد ، فإنه جاهل ضال عن الشرع يستحق العقوبة التي تردعه ، وأمثاله من الجهال الذين يعترضون على الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

والأحاديث الصحيحة في «الوعيد» كثيرة ، مثل قوله : « من قتل / نفساً معاهدة بغير حقها لم يجد رائحة الجنة ، وريحها يوجد من مسيرة أربعين خريفاً » (٣) ، ومثل قوله الذي في الصحيح : « لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر » ، قيل : يا رسول الله ، الرجل يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً ، أفمن الكبر ذاك؟ فقال : « لا ، الكبر بظر الحق ، وغمط الناس » (٤) ، و« بظر الحق » جحده ، و« غمط الناس » احتقارهم ، وازدراؤهم . ومثل قوله في الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وفقير مختال » (٥) .

وفي القرآن من آيات الوعيد ما شاء الله ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] ، وكما في قوله : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء : ٢٩ ، ٣٠] ، وقوله في الفرائض : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ

(١) أحمد ٤/٤١١ ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣١٤) .

(٢) مسلم في اللباس (٢١٢٨ / ١٢٥) وأحمد ٢ / ٣٥٦ .

(٣) البخاري في الجزية (٣١٦٦) وأبو داود في الجهاد (٢٧٦٠) .

(٤ ، ٥) سبق تخريجهما ص ٧٧ .

حُدُودَهُ يُدْخِلُهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ» [النساء: ١٣ ، ١٤].

١١/٦٤٨ / وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، أن «الوعيد» في الكتاب والسنة لأهل الكبائر موجود. ولكن الوعيد الموجود في الكتاب والسنة، قد بين الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ أنه لا يلحق التائب بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] أي لمن تاب. وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فهذا في حق من لم يتب، فالشرك لا يغفر، وما دون الشرك إن شاء الله غفره. وإن شاء عاقب عليه.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ ولا غَمٍّ، ولا حزن ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١) ولهذا لما نزل قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَّجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله، قد جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «يا أبا بكر، أَلست تنصب؟ أَلست تحزن؟ أَلست تصيبك اللأوى؟ فذلك مما تجزون به»^(٢) فالمصائب في الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به يكفر، وكذلك الحسنات التي يفعلها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(٣)، فالله تعالى لا يظلم/عبده شيئاً. كما قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فالوعيد: ينتفي عنه: إما بتوبة، وإما بحسنات يفعلها تكافئ سيئاته، وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياها، وإما بغير ذلك، وكما أن أحاديث الوعيد تُقدِّم وكذلك أحاديث الوعد. فقد يقول: لا إله إلا الله. ويجهد وجوب الصلاة، والزكاة، فهذا كافر يجب قتله، وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار.

وهذه - مسألة الوعد والوعيد - من أكبر مسائل العلم. وقد بسطناها في مواضع، ولكن كتبنا هنا ما تسع الورقة.

(١) البخارى فى المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٧٣ / ٥٢).

(٢) أحمد ١١/١، وقال الشيخ شاكر ١٨٢/١ (٦٩-٧١): «أسانيدنا ضعاف لأنقطاعها».

(٣) مسلم فى الطهارة (٢٣٣ / ١٦) والترمذى فى الصلاة (٢١٤).

/ وسئل عن الذنوب الكبائر المذكورة في القرآن، والحديث. هل لها حد تعرف به ؟ وهل قول من قال: إنها سبع، أو سبعة عشر، صحيح ؟ أو قول من قال : إنها ما انفقت فيها الشرائع - أعني على تحريمها؟ - أو أنها ما تسد باب المعرفة بالله؟ أو أنها ما تذهب الأموال والأبدان؟ أو أنها إنما سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها؟ أو أنها لا تعلم أصلاً. وأبهمت كليلة القدر؟ أو ما يحكي بعضهم أنها إلى التسعين أقرب، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، أو أنها ما رتب عليها حد. أو ما توعدها عليها بالنار؟.

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس، وذكره أبو عبيد ، وأحمد بن حنبل، وغيرهما وهو : أن الصغيرة ما دون الحدين : حد الدنيا، وحد الآخرة. وهو معنى قول من قال: ما ليس فيها حد في الدنيا . وهو معنى قول القائل: كل ذنب ختم بلعنة، أو غضب ، أو نار، فهو من الكبائر .

ومعنى قول القائل : وليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في / الآخرة، أي « وعيد خاص » كالوعيد بالنار، والغضب، واللعنة، وذلك لأن الوعيد الخاص في الآخرة، كالعقوبة الخاصة في الدنيا، فكما أنه يفرق في العقوبات المشروعة للناس بين العقوبات المقدرة بالقطع، والقتل، وجلد مائة ، أو ثمانين، وبين العقوبات التي ليست بمقدرة: وهي «التعزير» فكذلك يفرق في العقوبات التي يعز الله بها العباد - في غير أمر العباد بها - بين العقوبات المقدرة: كالغضب ، واللعنة، والنار، وبين العقوبات المطلقة.

وهذا «الضابط» يسلم من القوادح الواردة على غيره، فإنه يدخل كل ما ثبت في النص أنه كبيرة: كالشرك ، والقتل ، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وغير ذلك من الكبائر التي فيها عقوبات مقدرة مشروعة، وكالفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس، وشهادة الزور؛ فإن هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص، كما قال في الفرار من الزحف: ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ / أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]،

وقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧] .

وكذلك كل ذنب توعده صاحبه بأنه لا يدخل الجنة، ولا يشم رائحة الجنة، وقيل فيه: من فعله فليس منا، وأن صاحبه آثم، فهذه كلها من الكبائر . كقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»^(١) وقوله: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢) وقوله: «من غشنا فليس منا»^(٣) ، وقوله: «من حمل علينا السلاح فليس منا»^(٤) ، وقوله: «لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»^(٥).

وذلك لأن نفي الإيمان، وكونه ليس من المؤمنين، ليس المراد به ما يقوله المرجئة: أنه ليس من خيارنا، فإنه لو ترك ذلك لم يلزم أن يكون من خيارهم، وليس المراد به ما يقوله الخوارج: إنه صار كافراً. ولا ما يقوله المعتزلة: من أنه لم يبق معه من الإيمان شيء، بل هو / مستحق للخلود في النار لا يخرج منها، فهذه كلها أقوال باطلة، قد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع.

ولكن المؤمن المطلق في باب الوعد والوعيد، وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقاب، هو المؤدي للفرائض، المجتنب المحارم، وهؤلاء هم المؤمنون عند الإطلاق، فمن فعل هذه الكبائر لم يكن من هؤلاء المؤمنين، إذ هو متعرض للعقوبة على تلك الكبيرة. وهذا معنى قول من قال: أراد به نفي حقيقة الإيمان، أو نفي كمال الإيمان، فإنهم لم يريدوا نفي الكمال المستحب، فإن ترك الكمال المستحب لا يوجب الذم والوعيد، والفقهاء يقولون: الغسل ينقسم إلى: كامل، ومجزئ. ثم من عدل عن الغسل الكامل إلى المجزئ لم يكن مذموماً.

فمن أراد بقوله: «نفي كمال الإيمان» أنه نفي الكمال المستحب، فقد غلط، وهو يشبه قول المرجئة، ولكن يقتضي نفي الكمال الواجب. وهذا مطرد في سائر ما نفاه الله ورسوله؛ مثل قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

(١) البخاري في الأدب (٥٩٨٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٦ / ١٨) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٦) ، وأحمد ٨٠ / ٤ ، كلهم عن جبير بن مطعم.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٧ . (٣) مسلم في الإيمان (١٠١ / ١٦٤) .

(٤) البخاري في الفتن (٧٠٧٠) ومسلم في الإيمان (١٠٠ / ١٦٣) .

(٥) البخاري في المظالم (٢٤٧٥) ومسلم في الإيمان (٥٧ / ١٠٤) .

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]. ومثل الحديث المأثور: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(١)، ومثل قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بأمر القرآن»^(٢) وأمثال ذلك، فإنه لا ينفي مسمى الاسم إلا لانتفاء بعض ما يجب في ذلك، لا لانتفاء بعض مستحباته، فيفيد هذا الكلام أن من فعل ذلك فقد ترك الواجب الذي لا يتم الإيمان الواجب إلا به، وإن كان معه بعض الإيمان. فإن الإيمان يتبع بعض ويتفاضل. كما قال ﷺ: «يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(٣).

والمقصود هنا أن نفي الإيمان والجنة، أو كونه من المؤمنين، لا يكون إلا عن كبيرة. أما الصغائر فلا تنفي هذا الاسم والحكم عن صاحبها بمجردهما، فيعرف أن هذا النفي لا يكون لترك مستحب، ولا لفعل صغيرة، بل لفعل كبيرة.

وإنما قلنا: إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه:

أحدها: أنه المأثور عن السلف. بخلاف تلك الضوابط، فإنها لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة، وإنما قالها بعض من تكلم في شيء من الكلام، أو التصوف بغير دليل شرعي، وأما من قال من السلف: إنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، فهذا لا يخالف ما ذكرناه. وستكلم عليها إن شاء الله واحداً واحداً.

/ الثاني: أن الله قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات، واستحقاق الوعد الكريم، وكل من وعد بغضب الله أو لعنته، أو نار أو حرمان جنة، أو ما يقتضي ذلك، فإنه خارج عن هذا الوعد، فلا يكون من مجتنبي الكبائر، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد، لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر؛ إذ لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه، والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه.

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب، فهو حد يتلقى من خطاب الشارع، وماسوى ذلك ليس متلقى من كلام الله ورسوله، بل هو قول رأي القائل وذوقه من غير دليل شرعي، والرأي والذوق بدون دليل شرعي لا يجوز.

الرابع: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر، وأما تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر، لأن تلك الصفات لا دليل عليها، لأن الفرق بين ما اتفقت فيه الشرائع واختلفت لا يعلم إن لم يمكن وجود عالم بتلك الشرائع على وجهها، وهذا غير معلوم لنا.

-
- (١) أحمد ٣ / ١٣٥ وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠١): «رواه أحمد وأبو يعلى والبرز، والطبراني في الأوسط وفيه أبو هلال وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره».
- (٢) البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٩٤ / ٣٥، ٣٦).
- (٣) البخاري في الإيمان (٢٢) ومسلم في الإيمان (١٨٤ / ٣٠٤).

١١/٦٥٦ / وكذلك «ما يسد باب المعرفة» هو من الأمور النسبية والإضافية، فقد يسد باب المعرفة عن زيد ما لا يسد عن عمرو ، وليس لذلك حد محدود.

الخامس: أن تلك الأقوال فاسدة. فقول من قال: إنها ما اتفقت الشرائع على تحريمه، دون ما اختلفت فيه، يوجب أن تكون الحبة من مال اليتيم، ومن السرقة ، والخيانة، والكذبة الواحدة، وبعض الإساءات الخفية، ونحو ذلك كبيرة. وأن يكون الفرار من الزحف ليس من الكبائر ، إذ الجهاد لم يجب في كل شريعة، وكذلك يقتضي أن يكون الزوج بالمحرمات بالرضاعة والصهر وغيرهما ليس من الكبائر، لأنه مما لم تتفق عليه الشرائع، وكذلك إمساك المرأة بعد الطلاق الثلاث، ووطؤها بعد ذلك. مع اعتقاد التحريم.

وكذلك من قال: إنها ما تسد باب المعرفة، أو ذهاب النفوس والأموال، يوجب أن يكون القليل من الغضب والخيانة كبيرة، وأن يكون عقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم، وشرب الخمر، وأكل الميتة، ولحم الخنزير ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ونحو ذلك ليس من الكبائر.

١١/٦٥٧ ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، وأن ما عصى الله / به فهو كبيرة، فإنه يوجب ألا تكون الذنوب في نفسها تنقسم إلى كبائر وصغائر ، وهذا خلاف القرآن. فإن الله قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] ، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] ، وقال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نَهَوْا عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ، وقال: ﴿مَا لَهُذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] ، وقال: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣] والأحاديث كثيرة في الذنوب الكبائر.

ومن قال: هي سبعة عشر ، فهو قول بلا دليل .

ومن قال : إنها مبهمة، أو غير معلومة، فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها .

ومن قال: إنه ما توعده عليه بالنار، قد يقال: إن فيه تقصيراً إذ الوعيد قد يكون بالنار، وقد يكون بغيرها، وقد يقال: إن كل وعيد فلا بد أن يستلزم الوعيد بالنار.

وأما من قال :إنها كل ذنب فيه وعيد، فهذا يندرج فيما ذكره السلف ؛ فإن كل ذنب فيه حد في الدنيا ففيه وعيد من غير عكس، فإن الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وقذف المحصنات، ونحو ذلك فيها وعيد . كمن قال : إن الكبيرة ما فيها وعيد، والله أعلم.

/ سئل - رضي الله عنه - عن شرب الخمر وفعل الفاحشة، أيهما أعظم إثماً عند الله؟ أم هما مستويان؟ وما هي الكبائر التي قال عز وجل فيها: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فما هي هذه الكبائر، وما هي السيئات؟

فأجاب - رضي الله عنه :

الحمد لله، الكبائر: هي ما فيها حد في الدنيا، أو في الآخرة: كالزنا، والسرقه، والقذف، التي فيها حدود في الدنيا، وكالذنوب التي فيها حدود في الآخرة، وهو الوعيد الخاص، مثل الذنب الذي فيه غضب الله، ولعنته، أو جهنم، ومنع الجنة، كالسحر، واليمين الغموس، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشرب الخمر، ونحو ذلك. هكذا روى عن ابن عباس، وسفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من العلماء، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ / يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣].

وأكبر الكبائر: الإشراك بالله، ثم قتل النفس، ثم الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]، والزنا أعظم من شرب الخمر، إذا استويا في القدر، مثل من يزني مرة، ويشرب الخمر مرة، فأما إذا قدر أن رجلاً زنا مرة، وآخر مدمن على شرب الخمر، فهذا قد يكون أعظم من ذلك. كما أنه لو زنا مرة وتاب كان خيراً من المصّر على شرب الخمر، وكذلك شارب الخمر إذا دعا غيره فيكون عليه إثم شربه وعليه قسط من إثم الذين دعاهم إلى الشرب، وكذلك إذا اقترن بالشرب سماع المزامير، والشرب على بعض الصور المحرمة، ونحو ذلك فهذا مما يتغلظ فيه الشرب.

والذنب يتغلظ بتكراره، و بالإصرار عليه، وبما يقترن به من سيئات أخرى، وكذلك لو قدرنا أن الزاني زنا وهو خائف من الله، وجل من عذابه، والشارب يشرب لاهياً غافلاً لا

يراقب الله، كان ذنبه أعظم من هذا الوجه، فقد يقترن بالذنوب ما يخففها، وقد يقترن بها / ما يغلظها. كما أن الحسنات قد يقترن بها ما يعظمها، وقد يقترن بها ما يصغرها، فكما أن الحسنات أجناس متفاضلة، وقد يكون المفضل في كثير من المواضع أفضل مما جنسه فاضل. فكذلك السيئات.

فالصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء؛ مع أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر وبعد العصر أفضل من تحري صلاة التطوع في ذلك، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن فيه، وقد يكون بعض الناس انتفاعه بالذكر والدعاء أعظم من انتفاعه بالقراءة، فيكون أفضل في حقه، فهكذا السيئات، وإن كان القتل أعظم من الزنا، والزنا أعظم من الشرب، فقد يقترن بالشرب من المغلظات ما يصير به أغلظ من بعض ضرر الزنا.

وإذا عرف أن الحسنات والسيئات تتفاضل بالأجناس تارة، وتتفاضل بأحوال أخرى تعرض لها - تبين أن هذا قد يكون أعظم من هذا، وهذا أعظم من هذا، والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها. كما في حديث صاحب البطاقة الذي رجحت بطاقته التي فيها: « لا إله إلا الله » بالسجلات التي فيها ذنوبه^(١)، وكما في حديث البغي التي سقت كلباً بموقها، فغفر الله لها^(٢). وكذلك في السيئات. والله أعلم.

(١) أحمد ٢ / ٢١٣ وابن ماجه فى الزهد (٤٣٠٠) والترمذى فى الإيمان (٢٦٣٩) وقال : « حديث حسن

غريب » .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦٧) وأحمد ٢ / ٥٠٧ .

/ سئل الشيخ - رحمه الله - عن رجل مدام على المحرمات، وهو مواظب على الصلوات الخمس، ويصلي على محمد مائة مرة كل يوم، ويقول : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، كل يوم مائة مرة، فهل يُكفّر ذلك بالصلاة والاستغفار؟
فأجاب:

قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ، فمن كان مؤمناً وعمل عملاً صالحاً لوجه الله تعالى ، فإن الله لا يظلمه، بل يشبهه عليه .

وأما ما يفعله من المحرم اليسير فيستحق عليه العقوبة، ويرجى له من الله التوبة . كما قال الله تعالى : ﴿وَأَخْرُؤْنَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ، وإن مات ولم يتب فهذا أمره إلى الله . هو أعلم بمقدار حسناته وسيئاته . لا يشهد له بجنة ولا نار ، بخلاف الخوارج والمعتزلة فإنهم يقولون : إنه من فعل كبيرة أحبطت جميع حسناته ، وأهل السنة والجماعة لا يقولون بهذا الإحباط، بل أهل الكبائر معهم حسنات وسيئات، وأمرهم إلى الله تعالى .

/ وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٧] أي من اتقاه في ذلك العمل، بأن يكون عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله تعالى ، وأن يكون موافقاً للسنة، كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] . وكان عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وأهل الوعيد يقولون : لا يتقبل العمل إلا من اتقاه بترك جميع الكبائر . وهذا خلاف ما جاء به الكتاب والسنة في «قصة حمار» الذي كان يشرب الخمر، وقال النبي ﷺ : «إنه يحب الله ورسوله»^(١)، وكما في أحاديث الشفاعة، وإخراج أهل الكبائر من النار . حتى يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقد قال الله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذُنِ اللَّهِ﴾ [الآية [فاطر: ٣٢] .

(١) سبق تخريجه ص ٢٥٨ .

ومع هذا فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »^(١). وقال : « من شرب الخمر في الدنيا ، ولم يتب منها حرمها في الآخرة »^(٢) ، وقال : « لعن الله الخمر ، وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ، ومشتريها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وشاربها ، وساقيتها ، وآكل ثمنها »^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٥ .

(٢) البخارى فى الأشربة (٥٥٧٥) ومسلم فى الأشربة (٢٠٠٣ / ٧٧ ، ٧٨) .

(٣) أبو داود فى الأشربة (٣٦٧٤) والترمذى فى البيوع (١٢٩٥) وقال : « حديث غريب من حديث أنس » .

/ وقال - أيضاً - شيخ الإسلام - رحمه الله:

فصل

وكل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥]، فقد أخبر الله في هذه الآية أنه يغفر الذنوب ؛ أي لمن تاب .

وقد قال في الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وهذا في حق من لم يتب، فالشرك لا يغفره الله، وما دون الشرك أمره إلى الله، إن شاء عاقب عليه، وإن شاء عفا عنه .

ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله، كمن يستغيث في المخاوف / والأمراض والفاقات بالأموات، والغائبين . فيقول: يا سيدي الشيخ فلان، لشيخ ميت أو غائب، فيستغيث به، ويستوصيه، ويطلب منه ما يطلب من الله من النصر والعافية فإن هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله باتفاق المسلمين .

وهؤلاء المشركون قد يتمثل لأحدهم صورة الشيخ الذي استغاث به، فيظن أنه الشيخ، أو ملك جاء على صورته، وإنما هو شيطان تمثل له ليضله ويغويه لما دعا غير الله، كما كان نصيب المشركين الذين يعبدون الأصنام تخاطبهم الشياطين، وتترأى لهم، وتخبرهم ببعض الأمور الغائبة، وإن كان فيما يخبرون به من الكذب ما يبين أنهم شياطين . قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وهؤلاء كثيرون في المشركين: من الهند، والترك، والحبشة، وفي المتشبهين بهم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام؛ كأهل الإشارات الذين يظهرون إشارات الدم، والزعفران، واللادن، ويدعون أنهم يغيرون التراب، أو غيره . فيجعلونه كذلك، ومنهم من يدخل النار، ويأكل الحيات، ومنهم من يصرخ في بعض الناس فيمرض، أو يموت .

وهذه الأحوال تعرض لهم عند فعل ما يأمر به الشيطان، مثل السماع البدعي؛ سماع المكاء، والتصدية، وغير ذلك، فإن الذين / يتخذون ذلك قرينة ودينا تتحرك به قلوبهم، ويحصل لهم عنده من الوجع والصياح ما تنزل معه الشياطين، كما يدخل الشيطان في بدن المصروع، ولهذا يزيد أحدهم كإزباد المصروع، ويصبح كصياحه وذلك صياح الشياطين على ألسنتهم، ولهذا لا يدري أحد ما جرى منه حتى يفيق، ويتكلم الشيطان على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه الإنسان، ويدخل أحدهم النار، وقد لبسه الشيطان ويحصل ذلك لقوم من النصارى بالمغرب، وغيرهم. تلبسهم الشياطين، فيحصل لهم مثل ذلك.

فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة أحوالهم ليست من كرامات الصالحين، فإن كرامات الصالحين إنما تكون لأولياء الله المتقين، الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض التي فرضها عليهم، ثم بالنوافل التي ندبهم إليها، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبني يسمع، وبني يبصر، وبني يبطش، وبني يمشي، ولئن سألتني ل أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، / يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (١).

ولهذا قال أهل العلم والدين - كأبي يزيد البسطامي وغيره :

لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي، وقال الشافعي: لو رأيتم صاحب بدعة يطير في الهواء، فلا تغتروا به.

فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله، وسنة رسوله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين، وأولياء الله المتقين، وحزب الله المفلحين.

وأما أهل الشرك والبدع والفجور فأحوالهم من جنس أحوال «مسيلمة الكذاب»، و«الأسود العنسي» اللذين ادعيا النبوة في آخر أيام النبي ﷺ، وكان لكل منهما شياطين تخبره وتعينه.

(١) سبق تخريجه ص ١٦.

وكان «العنسي» قد استولى على أرض اليمن في حياة النبي ﷺ ، ثم قتله الله على أيدي عباده المؤمنين ، وكان قد طلب من أبي مسلم الخولاني أن يتابعه فامتنع ، فأنفذه في النار فجعلها الله / عليه برداً وسلاماً ، كما جرى لإبراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وذلك مع صلاته وذكره ودعائه لله مع سكينه ووقار ، وهؤلاء أصحاب الأحوال الشيطانية ، لا تصير النار عليهم برداً وسلاماً . بل قد يطفونها كما يطفئها الناس ، وذلك في حال اختلاط عقولهم ، وهيج شياطينهم ، وارتفاع أصواتهم ، هذا إن كان لأحدهم حال شيطاني .

١١/٦٦٧

وإلا فكثير منهم لا يحصل له ذلك ، بل يدخل في نوع من المكر والمحال فيتخذ حجر الطلق ، أو دهن الضفادع ، وأنواعاً من الأدوية كما يصنعون من جنس ما تصنعه المشعبدون ، إخفاء اللاذن ، والسكر في يد أحدهم ، فإنهم نوعان : خاصتهم أهل حال شيطاني ، وعامتهم أهل محال بهتاني .

وهؤلاء لا يعطى أحدهم من الزكاة حتى يتوب ، ويلتزم ما بعث الله به محمداً ﷺ من الكتاب والسنة ، ويكون مع ذلك من مستحقي الزكاة المذكورين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فأما من كان غنياً ليس من هذه الأصناف ، فلا يعطى من الزكاة ، لا سيما إذا كان مع غناه من شيوخ الضلال ، مثل شيوخ المضلين الأغنياء / الذين ليسوا من الأصناف الثمانية ، فإن هؤلاء لا يجوز أن يعطوا من الزكاة بإجماع المسلمين ، وهؤلاء إذا قالوا للإنسان : تعطينا وإلا فإنني أهلك في نفسك ، فإنه قد تعينهم شياطين على إضرار بعض الناس بقضاء الله وقدره ، لكن هذا يكون لمن هو خارج عن شريعة محمد ﷺ ، مثل أهل الفجور والبدع الذين لا يصلون الصلوات الخمس ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، فهؤلاء قد تسلط عليهم بعض هؤلاء بذنوبهم وخطاياهم .

١١/٦٦٨

وأما الذين يفعلون ما أمر الله به ورسوله من الصلوات الخمس ، وغيرها ، ويخلصون دينهم لله ، فلا يدعون إلا الله ، ولا يعبدون غيره ولا يندرون إلا لله ، ويحرمون ما حرم الله ورسوله ، فهؤلاء جند الله الغالبون ، وحزب الله المفلحون ، فإنه يؤيدهم وينصرهم . وهؤلاء يهزمون شياطين أولئك الضالين ، فلا يستطيعون مع شهود هؤلاء ، واستغاثتهم بالله ، أن يفعلوا شيئاً من تلك الأحوال الشيطانية ، بل تهرب منهم تلك الشياطين . وهؤلاء معترفون بذلك ، يقولون : أحوالنا ماتنفذ قدام أهل الكتاب والسنة ، وإنما تنفذ قدام من لا يكون كذلك من الأعراب والترك والعامة وغيرهم .

فهؤلاء من أهل الضلال والغي الذين يجب نهيهم، واستتابتهم، ومنعهم من طاعة الشيطان والشرك، والبدع، والفجور، وأمرهم بما / أمر الله به ورسوله، واتباع الكتاب والسنة.

ولا يجوز للمؤمن أن يخافهم فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥] ، وقال تعالى: ﴿لَنَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَادْكُرُونِي أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥٢].

/ وقال - أيضا - شيخ الإسلام - رحمه الله :

رب يسر وأعن يا كريم .

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

فصل

في أن التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات

والأول: يخفى على كثير من الناس . قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥] ، وقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] ، وقال تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] ، / وقال: ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود: ٢ ، ٣] ، ومثل هذا في القرآن كثير .

١١/٦٧١

فنقول : التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ، ومن فعل محظور ، فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب ، وترك «الإيمان» و«التوحيد» و«الفرائض» التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب ، عند كل أحد ، بل هي أعظم الصنفين . كما قد بسطناه فيما كتبناه من «القواعد» قبل ذهابي إلى مصر .

فإن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات ، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد ، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ، ولو فعل ما فعل . ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة كالزهاد راجعاً من المشركين ، وأهل الكتاب كعباد مشركي الهند ، وعباد النصارى ، وغيرهم ، فإنهم لا يقتلون ، ولا يزنون ، ولا يظلمون الناس ، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركه .

ولكن يقال : ترك الإيمان والتوحيد الواجب ، إنما يكون مع الاشتغال بضده ، وضده إذا

كان كفراً فهم يعاقبون على الكفر ، وهو / من باب المنهي عنه ، وإن كان ضده من جنس المباحات كالاشتغال بأهواء النفس ولذاتها ، من الأكل والشرب ، والرئاسة وغير ذلك عن الإيمان الواجب ، فالعقوبة هنا لأجل ترك الإيمان ، لا لأجل ترك هذا الجنس .

وقد يقال : كل من ترك الإيمان والتوحيد فلا يتركه إلا إلى كفر وشرك ، فإن النفس لا بد لها من إله تعبد ، فمن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان ، فيقال : عبادة الشيطان جنس عام ، وهذا إذا أمره أن يشتغل بما هو مانع له من الإيمان والتوحيد ، يقال : عبده . كما أن من أطاع الشيطان فقد عبده ، ولكن عبادة دون عبادة .

والناس « نوعان » طلاب دين ، وطلاب دنيا ، فهو يأمر طلاب الدين بالشرك والبدعة ، كعباد المشركين ، وأهل الكتاب ، ويأمر طلاب الدنيا بالشهوات البدنية ، وفي الحديث عن النبي ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم ، وفروجكم ، ومضلات الفتن » (١) .

ولهذا قال الحسن البصري لما ذكر الحديث : لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه ، فقالوا : أنت إذا مررت في السوق أشار إليك / الناس . فقال : إنه لم يعن هذا ، وإنما أراد المبتدع في دينه ، والفاجر في دنياه .

وقد بسطت الكلام على « النوعين » في مواضع ، كما ذكرنا في « اقتضاء الصراط المستقيم » الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمِعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمِعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمِعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [التوبة : ٦٩] ، وبسط هذا له موضع آخر .

فإن ترك الواجب وفعل المحرم متلازمان ؛ ولهذا كان من فعل ما نهى عنه يقال : إنه عصى الأمر . ولو قال لها : إن عصيتي أمري فأنت طالق . فنهاها فعصته ، ففيه وجهان : أحدهما أنها تطلق ، وبعض الفقهاء يعلل ذلك بأن هذا يعد في العرف عاصياً ، ويجعلون هذا في الأصل نوعين .

والتحقيق أن كل نهى ففيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي ، فهو أمر ، فالأمر يتناول هذا وهذا . ومنه قول الخضر لموسى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَجْدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ وقال له : ﴿ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٦٧-٧٠] . فقله : / ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، قد تناوله قوله : ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ . ومنه قول

(١) كثر العمال (٤٣٨٦٢) ، وعزاه للطبراني في الصغير ، عن أبي هريرة الأسلمي .

موسى لأخيه: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعُنِ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه: ٩٢ ، ٩٣] ،
وموسى قال له : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]
نهى ، وهو لأمه على أنه لم يتبعه ، وقال: ﴿ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ ؟ وعباد العجل كانوا
مفسدين . وقد جعل هذا كله أمراً .

وكذلك قوله: ﴿ مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾
[التحریم: ٦] ، فهم لا يعصونه إذا نهاهم ، وقوله عن الرسول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ
عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] ، فمن ركب ما نهى عنه فقد
خالف أمره ، وقال تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: ١٢١] ، وإنما كان فعلاً منهيًا عنه .
وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، هو يتناول ما نهى عنه ، أقوى مما يتناول ما أمر به ، فإنه قال في
الحديث الصحيح: « إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما
استطعتم » (١) .

وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ [النساء: ٤٢] ،
فالمعصية مخالفة الأمر ، ومخالفة النهي عاص ، فإنه مخالف الأمر ، وفاعل المحذور قد
يكون أظهر معصية من تارك المأمور .

/ وبالجمل ، فهما متلازمان . كل من أمر بشيء فقد نهى عن فعل ضده ، ومن نهى
عن فعل فقد أمر بفعل ضده ، كما بسط في موضعه ، ولكن لفظ « الأمر » يعم النوعين ،
واللفظ العام قد يخص أحد نوعيه باسم ، ويبقى الاسم العام للنوع الآخر ، فلفظ الأمر
عام لكن خصوا أحد النوعين بلفظ النهي ، فإذا قرن النهي بالأمر كان المراد به أحد
النوعين ، لا العموم .

فصل

والمقصود أن الاستغفار والتوبة يكونان من كلا النوعين ، وأيضاً فالاستغفار والتوبة مما
فعله وتركه ، في حال الجهل قبل أن يعلم أن هذا قبيح من السيئات ، وقبل أن يرسل إليه
رسول ، وقبل أن تقوم عليه الحجة ، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾
[الإسراء: ١٥] .

وقد قال طائفة من أهل الكلام والرأي : إن هذا في الواجبات الشرعية غير العقلية .

(١) سبق تخريجه ص ١٢ .

كما يقوله من يقوله من المعتزلة وغيرهم: من أصحاب أبي حنيفة، وغيرهم: مثل أبي الخطاب^(١) وغيره، على أن الآية عامة: لا يعذب الله أحداً إلا بعد رسول.

١١/٦٧٦ / وفيهما دليل على أنه لا يعذب إلا بذنب، خلافاً لما يقوله: «المجبرة» أتباع جهم: أنه تعالى يعذب بلا ذنب، وقد تبعه طائفة تنسب إلى السنة: كالأشعري وغيره، وهو قول القاضي أبي يعلى وغيره، وقالوا: إن الله يجوز أن يعذب الأطفال في الآخرة عذاباً لا نهاية له من غير ذنب فعلوه، وهؤلاء يحتجون بالآية على إبطال قول من يقول: إن العقل يوجب عذاب من لم يفعل، والآية حجة عليهم أيضاً حيث يجوزون العذاب بلا ذنب، فهي حجة على الطائفتين.

ولها نظائر في القرآن كقوله: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» [القصص: ٥٩]، وقوله تعالى: «لَعَلَّأ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» [النساء: ١٦٥] وقوله: «كَلِمَاتٍ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ». قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير» [الملك: ٨، ٩]. وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئاً وقيحاً وشرّاً، لكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول. هذا قول الجمهور.

١١/٦٧٧ وقيل: إنه لا يكون قبيحاً إلا بالنهي، وهو قول من لا يثبت حسناً ولا قبيحاً إلا بالأمر والنهي. كقول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة. وأصحاب مالك والشافعي وأحمد: كالقاضي أبي يعلى، وأبي الوليد الباجي، وأبي المعالي الجويني وغيرهم، والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل / مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئاً قبيحاً، وكان شرّاً. لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول؛ ولهذا كان للناس في الشرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك ثلاثة أقوال: قيل: إن قبحهما معلوم بالعقل، وأنهم يستحقون العذاب على ذلك في الآخرة،

(١) هو محفوظ بن أحمد بن حسن بن حسن العراقي، الكلواذاني، ثم البغدادي الأزجي، الشيخ الإمام، العلامة الورع، شيخ الحنابلة. تلميذ القاضي أبي يعلى الفراء. ولد في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمئة، قال السلفي: هو ثقة رضي، من أصحاب أحمد، وقال غيره: كان مفتياً صالحاً، عابداً ورعاً، حسن العشرة، له نظم رائع، وله كتاب «الهداية». قيل عنه: إنه كان من محاسن العلماء، خيراً صادقاً، حسن الخلق، حلوا النادرة من أذكاء الرجال، روى الكثير، وطلب الحديث وكتبه، ولابن كليب منه إجازة. درس الفقه على أبي يعلى، وقرأ الفرائض على الوفي، وصار إمام وقته، وشيخ عصره، وصنف في المذهب والأصول والخلاف والشعر الجيد. توفي أبو الخطاب في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة عشر وخمسمئة. [سير أعلام النبلاء: ٣٤٨/١٩-٣٥٠].

وإن لم يأتهم الرسول، كما يقوله المعتزلة ، وكثير من أصحاب أبي حنيفة . وحكوه عن أبي حنيفة نفسه، وهو قول أبي الخطاب، وغيره.

وقيل: لا قبح، ولا حسن، ولا شر فيهما قبل الخطاب، وإنما القبيح ما قيل : فيه لا تفعل ، والحسن ما قيل : فيه افعل ، أو ما أذن في فعله، كما تقوله الأشعرية ، ومن وافقهم، من الطوائف الثلاثة.

وقيل: إن ذلك سيئ ، وشر، وقبيح، قبل مجيء الرسول؛ لكن العقوبة إنما تستحق بمجيء الرسول. وعلى هذا عامة السلف، وأكثر المسلمين، وعليه يدل الكتاب والسنة، فإن فيهما بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح، وسيئ قبل الرسل، وإن كانوا لا يستحقون العقوبة إلا بالرسول . وفي الصحيح أن حذيفة قال: يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»^(١).

/ فصل

١١ / ٦٧٨

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتهم الرسول، كقوله لموسى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِكْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۖ﴾ [النازعات: ١٧-١٩] ، وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦٤-٦٤] . فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى، وحين كان صغيراً قبل أن يأتیه برسالة، إنه كان طاغياً مفسداً.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ . أَنِ اقْذِفِي فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِي فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۖ﴾ [طه: ٣٧-٣٩] . وهو فرعون ، فهو إذ ذاك عدو لله، ولم يكن جاءتة الرسالة بعد.

(١) البخاري في الفتن (٧٠٨٤) ، ومسلم في الإمامة (١٨٤٧/٥١).

/ فصل

وأيضاً أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا بما فعلوه، فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين، ما أمر بالاستغفار والتوبة، فعلم أنه كان من السيئات القبيحة، لكن الله لا يعاقب إلا بعد إقامة الحجة. وهذا كقوله تعالى: ﴿الرَّكَابُ أَكْثَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتَّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١-٣] ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] ، وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ١-٤] . فدل على أنها كانت ذنباً قبل إنذاره إياهم .

١١/٦٨٠

وقال عن هود: ﴿وَالَّذِي عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ / مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ . يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ . وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٠-٥٢] ، فأخبر في أول خطابه أنهم مفترون بأكثر الذي كانوا عليه، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] .

وكذلك قال صالح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] .

وكذلك قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] . فدل على أنها كانت فاحشة عندهم قبل أن ينهاهم، بخلاف قول من يقول: ما كانت فاحشة، ولا قبيحة، ولا سيئة حتى نهاهم عنها، ولهذا قال لهم: ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] . وهذا خطاب لمن يعرفون قبح ما يفعلون، ولكن أنذرهم بالعذاب .

وكذلك قول شعيب: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥] . بين أن ما فعلوه / كان بخساً لهم أشياءهم، وأنهم كانوا عاثين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاهم ، بخلاف قول «المجبرة»: إن ظلمهم ما كان سيئة، إلا لما نهاهم، وأنه قبل النهي كان بمنزلة سائر الأفعال من الأكل والشرب،

١١/٦٨١

وغير ذلك . كما يقولون في سائر ما نهت عنه الرسل من الشرك والظلم والفواحش .

وهكذا إبراهيم الخليل قال : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤١ ، ٤٢] ، فهذا توبيخ على فعله قبل النهي ، وقال أيضاً : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْتَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [العنكبوت: ١٦ ، ١٧] . فأخبر أنهم يخلقون إفكاً قبل النهي .

وكذلك قول الخليل لقومه أيضاً : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَتُنْفَكُوا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٨٥-٩٦] فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه ، قبل النهي ، وقبل إنكاره عليهم ، ولهذا استفهم استفهام منكر ، فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، أي : وخلق ما تَنْحِتُونَ . فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم ؟ وتدعون رب العالمين .

/ فلولا أن حسن التوحيد ، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر ، معلوم بالعقل ، لم يخاطبهم بهذا إذ كانوا لم يفعلوا شيئاً يذمون عليه ، بل كان فعلهم كأكلهم وشربهم ، وإنما كان قبيحاً بالنهي ، ومعني قبحه كونه منهياً عنه ، لا لمعنى فيه ، كما تقوله المجبرة .

١١/٦٨٢

و أيضاً ، ففي القرآن في مواضع كثيرة يبين لهم قبح ما هم عليه من الشرك وغيره بالأدلة العقلية ، ويضرب لهم الأمثال ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] . فهذا يقتضي أن اعترفهم بأن الله هو الخالق يوجب انتهاءهم عن عبادتها ، وأن عبادتها من القبائح المذمومة ، ولكن هؤلاء يظنون أن الشرك هو اعتقاد أن ثم خالق آخر ، وهذا باطل ، بل الشرك عبادة غير الله ، وإن اعترف المشرك بأنه مخلوق .

وقوله : إنه كله لله ، كذب مفترى (١) وإن قال : إنه مخلوق . ومثل هذا كثير في القرآن . كقوله : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْتُوا / شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (٢) . أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إلهٌ مَعَ اللَّهِ ، وهذا في

١١/٦٨٣

(١) كذا بالأصل .

(٢) في المطبوعة : « وأنزل » والصواب ما أثبتناه .

(٣) في المطبوعة : « بل أكثرهم لا يعلمون » والصواب ما أثبتناه .

جملة بعد جملة يقول: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١]، إنكار عليهم أن يعبدوا غير الله، ويتخذوه إلهًا مع اعترافهم بأن هذا لم يفعله إله غير الله، وإنما فعله هو وحده.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ جواب الاستفهام، أي: إله مع الله موجود وهذا غلط، فإنهم يجعلون مع الله آلهة ويشهدون بذلك، لكن ما كانوا يقولون: إنهم فعلوا ذلك، والتقرير إنما يكون لما يقرون به، وهم مقرون بأنهم لم يفعلوا، لا يقرون بأنه لم يكن معه إله. قال تعالى: ﴿أَتُنْكُمُ لِلشَّهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]. وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

/ فهذا وإن كان قال الصحابة والتابعون: إن كل عاص فهو جاهل - كما قد بسط في ١١/٦٨٤ موضع آخر - فهو متناول لمن يكون علم التحريم أيضًا.

فدل على أنه يكون عاملاً سوءاً، وإن كان لم يسمع الخطاب المبين المنهي عنه، وأنه يتوب من ذلك فيغفر الله له ويرحمه، وإن كان لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ الخطاب، وقيام الحجة.

وإذا كانت التوبة والاستغفار تكون من ترك الواجبات، وتكون مما لم يكن علم أنه ذنب، تبين كثرة ما يدخل في التوبة والاستغفار، فإن كثيراً من الناس إذا ذكرت التوبة والاستغفار يستشعر قبائح قد فعلها فعلم بالعلم العام أنها قبيحة: كالفاحشة، والظلم الظاهر، فأما ما قد يتخذ ديناً فلا يعلم أنه ذنب، إلا من علم أنه باطل؛ كدين المشركين، وأهل الكتاب المبدل، فإنه مما تحب التوبة والاستغفار منه، وأهله يحسبون أنهم على هدى. وكذلك البدع كلها.

ولهذا قال طائفة من السلف - منهم الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها. وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم قالوا: إن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة، بمعنى أنه لا يتوب منها؛ لأنه يحسب أنه على هدى، ولو تاب لتاب عليه، كما يتوب على الكافر. ومن قال: إنه لا يقبل / توبة مبتدع مطلقاً فقد غلط غلطاً منكراً، ومن قال: ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة، فمعناه: ما دام

مبتدعاً يراها حسنة لا يتوب منها، فأما إذا أراه الله أنها قبيحة فإنه يتوب منها كما يرى الكافر أنه على ضلال ، وإلا فمعلوم أن كثيراً ممن كان على بدعة تبين له ضلالها، وتاب الله عليه منها. وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله.

و « الخوارج » لما أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم ، رجع منهم نصفهم ، أو نحوه ، وتابوا ، وتاب منهم آخرون على يد عمر بن عبد العزيز وغيره ، منهم من سمع العلم فتاب ، وهذا كثير ، فهذا القسم الذي لا يعلم فاعلوه قبحه قسم كثير من أهل القبلة ، وهو في غيرهم عام ، وكذلك ما يترك الإنسان من واجبات لا يعلم وجوبها كثيرة جداً ، ثم إذا علم ما كان قد تركه من الحسنات من التوحيد والإيمان ، وما كان مأموراً بالتوبة منه ، والاستغفار عما كان سيئاً ، و التائب يتوب بما تركه ، وضيعه ، وفرط فيه ، من حقوق الله تعالى ، كما يتوب بما فعله من السيئات ، وإن كان قد فعل هذا وترك هذا قبل الرسالة ، فبالرسالة يستحق العقاب على ترك هذا وفعل هذا . وإلا فكونه كان فاعلاً للسيئات المذمومة ، وتاركاً للحسنات التي يذم تاركها ، كان تائباً قبل ذلك ، كما تقدم ، وذكرنا القولين : قول من نفى الذم والعقاب ، وقول من أثبت الذم والعقاب .

/ فإن قيل : إذا لم يكن معاقباً عليها ، فلا معنى لقبحها ، قيل : بل فيه معنيان :

١١/٦٨٦

أحدهما : أنه سبب للعقاب ، لكن هو متوقف على الشرط ، وهو الحجة ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، فلولا إنقاذه لسقطوا ، ومن كان واقفاً على شفير فهللك ، فهلاكه موقوف على سقوطه ، بخلاف ما إذا بان وبعد عن ذلك ، فقد بعد عن الهلاك . فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب .

الثاني : أنهم مذمومون ، منقوصون ، معييون . فدرجتهم منخفضة بذلك ، ولا بد . ولو قدر أنهم لم يعذبوا لا يستحقون ما يستحقه السليم من ذلك من كرامته أيضاً ، وثوابه . فهذه عقوبة بحرمان خير ، وهي أحد نوعي العقوبة ، وهذا وإن كان حاصلاً لكل من ترك مستحباً فإنه يفوته خيره ، ففرق بين ما يفوته ما لم يحصل له ، وبين ما ينقص ما عنده ، وهذا كلام عام فيما لم يعاقب عليه من الذنوب .

وأما من لم يرسل إليه رسول في الدنيا : فقد رويت آثار أنهم يرسل إليهم رسول في عرصات القيامة ، كما قد بسط في مواضع .

وقد تنازع الناس في «الوجوب والتحريم» هل يتحقق بدون العقاب / على الترك؟ على قولين . قيل : لا يتحقق ، فإنه إذا لم يعاقب كان كالمباح ، وقيل : يتحقق ، فإنه لا بد أن يذم وإن لم يعاقب .

١١/٦٨٧

وتحقيق الأمر أن العقاب «نوعان» نوع بالآلام، فهذا قد يسقط بكثرة الحسنات، ونوع ينقص الدرجة، وحرمان ما كان يستحقه، فهذا يحصل إذا لم يحصل الأول، والله تعالى يكفر سيئات المسيء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فيكفرها تارة بالمصائب، فتبقى درجة صاحبها كما كانت، وقد تصير درجته أعلى، ويكفرها بالطاعات، ومن لم يأت بتلك السيئات أعلى درجة. فيحرم صاحب السيئات ما يسقط بإزائها من طاعته، وهذا مما يتوب منه من أراد ألا يخسر ومن فرط في مستحبات فإنه يتوب أيضاً، ليحصل له موجبها. فالتوبة تتناول هؤلاء كلهم، وتوبة الإنسان من حسناته على أوجه:

أحدهما: أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها.

والثاني: أن يتوب مما كان يظنه حسنات، ولم يكن كحال أهل البدع.

والثالث: يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها، وأنها حصلت / بقوته، وينسى فضل الله وإحسانه، وأنه هو المنعم بها، وهذه توبة من فعل مذموم، وترك مأمور.

ولهذا قيل: تخليص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائماً. ولهذا قيل: هي مقام يستصعبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره، ولا بد منه لجميع الخلق، فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا، وأن يستديموا التوبة. قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]. فغاية كل مؤمن التوبة، وقد قال الله لأفضل الأنبياء، وأفضل الخلق بعد الأنبياء، وهم السابقون الأولون: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ومن أواخر ما أنزل الله قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

وقد ثبت في الصحيحين أنه كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن^(١). وفي لفظ لمسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك».

(١) سبق تخريجه ص ١٤١ .

قالت: فقلت: يارسول الله، أراك تكثر من قولك: سبحانك اللهم، وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك. فقال: «أخبرني ربي أنني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتهَا أَكْثَرُ من قول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، فقد رأيتهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فتح مكة، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» (١) [سورة النصر].

وأمره - سبحانه - له بالتسبيح بحمده والاستغفار في هذه الحال لا يقتضي أنه لا يشرع في غيرها، أو لا يؤمر به غيره، بل يقتضي أن هذا سبب لما أمر به، وإن كان مأمورًا به في مواضع آخر. كما يؤمر الإنسان بالحمد والشكر على نعمه، وإن كان مأمورًا بالشكر عليها، وكما يؤمر بالتوبة من ذنب وإن كان مأمورًا بالتوبة من غيره، لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا، فغيره أحوج إلى هذا منه، وقد يحتاج العبد إلى هذا في غير هذه الحال، كما يحتاج إلى التوبة، فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقًا، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثًا (٢). قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] قاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون.

وقد ختم الله «سورة المزمل» وفيها قيام الليل بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا / اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، كما ختم بذلك «سورة المدثر» بقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فهو سبحانه أهل التقوى، ولم يقل سبحانه أهل للتقوى، بل قال: ﴿أَهْلُ التَّقْوَى﴾، فهو وحده أهل أن يتقى، فيعبد دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يتقى، كما قال: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وهو أهل المغفرة، ولا يغفر الذنوب غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي غير حديث يقول النبي ﷺ: «إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (٣) فهو سبحانه أهل التقوى، وأهل المغفرة، وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع، كقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فالْمُؤْمِنُونَ يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الإسلام من توحيد الله، وعبادته، وإن كان ذلك

(١) مسلم في الصلاة (٤٨٤/ ٢٢٠).

(٢) مسلم في المساجد (١٣٥/ ٥٩١)، عن ثوبان.

(٣) سبق تخريجه في حديث سيد الاستغفار ص ٢٠.

لم يأتهم به رسول بعد ، كما تقدم ، والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه كما قال فيه : ﴿ مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب ، والمؤمن إذا تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك ، وتاب . وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم .

١١/٦٩١

/ فصل

وأيضاً فمما يستغفر ويتاب منه ما في النفس من الأمور التي لو قالها أو فعلها عذب . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ، فهو يغفر لمن يرجع عما في نفسه ، فلم يتكلم به ، ولم يعمل : كالذي هم بالسيئة ولم يعملها ، وإن تركها لله كتبت له حسنة ، وهذا مما يستغفر منه ويتوب ، فإن الاستغفار والتوبة من كل ما كان سبباً للذم والعقاب ، وإن كان لم يحصل العقاب ، ولا الذم . فإنه يفضي إليه ، فيتوب من ذلك : أي يرجع عنه ، حتى لا يفضي إلى شر ، فيستغفر الله منه ، أي يطلب منه أن يغفر له ، فلا يشقيه به ، فإنه وإن لم يعاقب عليه فقد ينقص به ، فالذي يهيم بالسيئات وإن كان لا يكتب عليه سيئة ، لكنه اشتغل بها عما كان ينفعه ، فينقص بها عمن لم يفعلها ، واشتغل بما ينفعه عنها .

وقد بسطنا في غير هذا الموضع : أن فعل الإنسان وقوله - إما له و إما عليه - لا يخلو من هذا أو هذا . فهو يستغفر الله ويتوب مما / عليه . وقد يظن ظنون سوء باطلة ، وإن لم يتكلم بها ، فإذا تبين له فيها استغفر الله وتاب .

١١/٦٩٢

وظلمه لنفسه يكون بترك واجب كما يكون بفعل محرم . فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ ﴾ [النساء: ١١٠] ، من عطف العام على الخاص ، وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، وقد قيل : في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، قيل : الفاحشة الزنا ، وقيل : كل كبيرة ، وظلم النفس المذكور معها . قيل : هو فاحشة أيضاً . وقيل : هي الصغائر . وهذا يوافق قول من قال : الفاحشة هي الكبيرة ، فيكون الكلام قد تناول الكبيرة والصغيرة ، ومن قال : الفاحشة الزنا ، يقول : ظلم النفس يدخل فيه سائر المحرمات ، وقيل : الفاحشة الزنا ، وظلم النفس ما دونه من اللمس والقبلة والمعانقة ، وقيل : هذا هو الفاحشة ، وظلم النفس المعاصي ، وقيل : الفاحشة فعل وظلم النفس قول .

والتحقيق أن « ظلم النفس » جنس عام يتناول كل ذنب، وفي الصحيحين أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعوه به في صلاتي فقال: « قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »^(١)، / وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي ﷺ كان يقول في استفتاحه: « اللهم أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت »^(٢).

وقد قال أبو البشر وزوجته: « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [الأعراف: ٢٣]، وقال موسى: « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » [القصص: ١٦]، وقال ذو النون - يونس - : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » [الأنبياء: ٨٧]، وقالت بلقيس: « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » [النمل: ٤٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ^(٣) وقد قال عن أهل القرى المعذنين: « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » [هود: ١٠١]، وأما قوله: « اغفر لنا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا » [آل عمران: ١٤٧]، فقد قيل: إن الذنوب هي الصغائر، والإسراف هو الكبائر.

والتحقيق أن « الذنوب » اسم جنس، و« الإسراف » تعدي الحد، ومجازة القصد، كما في لفظ الإثم والعدوان فالذنوب كالإثم، / والإسراف كالعدوان، كما في قوله: « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » [الأنعام: ١٤٥]، ومجازة قدر الحاجة، فالذنوب مثل اتباع الهوى بغير هدى من الله، فهذا كله ذنب، كالذي يرضى لنفسه، ويغضب لنفسه، فهو متبع لهواه، و« الإسراف » كالذي يغضب لله، فيعاقب بأكثر مما أمر الله. والآية في سياق قتال المشركين، وما أصابهم يوم أحد.

وقد أخبر عمن قبلهم بقوله: « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » [آل عمران: ١٤٦]، وقد قيل على الصحيح، المراد به النبي ﷺ وإن لم يقتل في معركة فقد قتل أنبياء كثيرين، « فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ». وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ

(١) سبق تخريجه ص ١٤١ .

(٢) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١ / ٢٠١) .

(٣) كذا بالأصل .

إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴿الآية﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] . فجمعوا بين الصبر والاستغفار . وهذا هو المأمور به في المصائب ، الصبر عليها ، والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها .

والقتال كثيراً ما يقاتل الإنسان فيه لغير الله ، كالذي يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ، ويقاقل رياء ، فهذا كله ذنوب ، والذي يقاتل لله قد يسرف فيقتل من لا يستحق القتل ، ويعاقب الكفار بأشد مما أمر به . قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] ، وقال : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] ، فالإسراف مجاوزة الحد .

هذا آخر ما كتبه هنا . والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

/ وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله :

الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، من العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه، والأكمل، فإن العابد لله، والعارف بالله. في كل يوم، بل في كل ساعة، بل في كل لحظة، يزداد علماً بالله، وبصيرة في دينه وعبوديته، بحيث يجد ذلك في طعامه، وشرابه، ونومه، ويقظته، وقوله، وفعله، ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية، وإعطائها حقها، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطر إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوايب والمشاهد، لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع المضرات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية.

وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد، واقتراها شهادة أن لا إله إلا الله، من أولهم إلى آخرهم، ومن آخرهم إلى / أولهم، ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم، وهم فيها درجات عند الله، ولكل عامل مقام معلوم. فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله، دقه وجله، خطأ وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه.

والاستغفار يحو ما بقى من عثراته، ويحو الذنب الذي هو من شعب الشرك، فإن الذنوب كلها من شعب الشرك، فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يحو فروعه، فأبلغ الثناء قول: لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء قول: أستغفر الله. فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه، ولإخوانه، من المؤمنين.

وقال : إياك والنظر في كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه في القلوب خفي عن المعرفة، كما يبهز ضوء الشمس عيون الخفافيش بالنهار.

فاحذر سئل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الإيمان، أصحاب البصائر في الشبهات والشهوات، الفارقين بين الواردات الرحمانية والشیطانية، العالمين العاملين، ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

/ وقال: التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلها مشروط فيها بالإخلاص لله، وموافقة أمره باتباع رسوله، والاستغفار من أكبر الحسنات، وبابه واسع. فمن أحسن بتقصير في قوله، أو عمله، أو حاله، أو رزقه، أو تقلب قلب - فعليه بالتوحيد، والاستغفار، ففيهما

الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص .

وكذلك إذا وجد العبد تقصيراً في حقوق القرابة، والأهل والأولاد، والجيران ،
والإخوان ، فعليه بالدعاء لهم ، والاستغفار ؛ قال حذيفة بن اليمان للنبي ﷺ : إن لي
لساناً ذرباً على أهلي . فقال له : « أين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم
أكثر من سبعين مرة»^(١) .

(١) أحمد ٥ / ٣٩٤ وابن ماجه فى الأدب (٣٨١٧) ، وضعفه الألبانى ، وأصله فى البخارى فى الدعوات
(٦٣٠٧) .

/ وسئل - رحمه الله - عن قوله: « ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم والليلة سبعين مرة » (١) . هل المراد ذكر الاستغفار باللفظ؟ أو أنه إذا استغفر ينوي بالقلب ألا يعود إلى الذنب؟ وهل إذا تاب من الذنب وعزم بالقلب ألا يعود إليه، وأقام مدة ثم وقع فيه: أف يكون ذلك الذنب القديم يضاف إلى الثاني؟ أو يكون مغفوراً بالتوبة المتقدمة وهل التائب من شرب الخمر، ولبس الحرير يشربه في الآخرة؟ ويلبس الحرير في الآخرة؟ والتوبة النصوح ما شرطها؟

فأجاب :

الحمد لله ، بل المراد الاستغفار بالقلب مع اللسان ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، كما في الحديث الآخر: « لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » (٢) فإذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة ، وإذا تاب منها غفرت ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [آل عمران : ١٣٥] .

/ وإذا تاب توبة صحيحة غفرت ذنوبه ، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضاً . وإذا تاب قبل الله توبته أيضاً .

وقد تنازع العلماء في التائب من الكفر ، إذا ارتد بعد إسلامه ، ثم تاب بعد الردة وأسلم ، هل يعود عمله الأول؟ على قولين ، مباهما أن الردة هل تحبط العمل مطلقاً ، أو تحبطه بشرط الموت عليها .

فمذهب أبي حنيفة ومالك أنها تحبطه مطلقاً . ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها .

والردة ضد التوبة ، وليس من السيئات ما يمحو جميع الحسنات إلا الردة ، وقد قال تعالى : ﴿ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحریم: ٨] ، قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه : ﴿ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ ، أن يتوب ثم لا يعود ، فهذه التوبة الواجبة التامة .

ومن تاب من شرب الخمر ، ولبس الحرير ، فإنه يلبس ذلك في الآخرة ، كما جاء في

(١) أبو داود في الصلاة (١٥١٤) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٩) وقال : « حديث غريب ، وليس إسناده بالقوى » ، كلاهما عن أبي بكر الصديق .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي (٩٩٢٠) ورمز له بالضعف ، ومسند الفردوس (٧٩٤٤) .

الحديث الصحيح: «من شرب الخمر ثم لم يتب منها حرمها»^(١) وقد ذهب بعض الناس
كـبعض أصحاب أحمد : إلى أنه لا يشربها مطلقاً، وقد أخطؤوا الصواب الذي عليه
جمهور المسلمين .

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٩ .

/ وسئل عن اليهودي أو النصراني إذا أسلم. هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام؟

فأجاب :

إذا أسلم باطنًا وظاهرًا ، غفر له الكفر الذي تاب منه بالإسلام بلا نزاع ، وأما الذنوب التي لم يتب منها مثل أن يكون مصرًا على ذنب ، أو ظلم ، أو فاحشة ، ولم يتب منها بالإسلام ، فقد قال بعض الناس : إنه يغفر له بالإسلام ، والصحيح : أنه إنما يغفر له ما تاب منه ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل : أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال : «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» (١) .

و«حسن الإسلام» أن يلتزم فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه ، وهذا معنى التوبة العامة ، فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها .

وهكذا كان إسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث/ الصحيح لعمر بن العاص : «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله» (٢) ، فإن اللام لتعريف العهد ، والإسلام المعهود بينهم كان الإسلام الحسن .

وقوله : «ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر» (٣) ، أي : إذا أصر على ما كان يعمل من الذنوب فإنه يؤاخذ بالأول والآخر ، وهذا موجب النصوص والعدل . فإن من تاب من ذنب غفر له ذلك الذنب ، ولم يجب أن يغفر له غيره .

والمسلم تائب من الكفر ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ، وقوله : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] أي إذا انتهوا عما نهو عنه غفر لهم ما قد سلف .

فالانتهاء عن الذنب هو التوبة منه . من انتهى عن ذنب غفر له ما سلف منه . وأما من لم ينته عن ذنب فلا يجب أن يغفر له ما سلف لانتهائه عن ذنب آخر . والله أعلم .

آخر المجلد الحادي عشر

(١) البخاري في استنباط المرتدين (٦٩٢١) ، ومسلم في الإيمان (١٨٩/١٢٠) ، كلاهما عن عبد الله بن مسعود .

(٢) مسلم في الإيمان (١٢١ / ١٩٢) .

(٣) البخاري في استنباط المرتدين (٦٩٢١) وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٢) .